الأقسام في القرآن
دراسة مبسطة حول الأقسام الواردة في القرآن الكريم

تأليف

العلاّمة المحقّق

جعفر السبحاني

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن والآفاق اللامتناهية

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا ونبيّنا محمّد خير من طاف الأرض وحكم، وعلى آله الأئمّة السادة هداة الأُمّة إلى الطريق الأقوم.

نزل القرآن الكريم على قلب سيد المرسلين هادياً للإنسان ومنيراً له طريق السعادة، وقد وضع علماء الإسلام علوماً جمة لفهم حقائقه وكشف أسراره ومعانيه، وعلى الرغم من ذلك، لم يزل المفسرون في كلّ عصر يستخرجون منه حقائق غفل عنها الأقدمون، وكأنّ الإنسان أمام بحر موّاج بالحقائق العلمية لا يُدرك غوره ولا يتوصل إلى أعماقه، ولا يمكن لأحد الإحاطة بأسراره وعجائبه.

وكأنّ القرآن هو النسخة الثانية لعالم الطبيعة الذي لم يزل يبحث عن أسراره الباحثون، وهم بعد في الأشواط الأُولى من الوقوف على حقائقه الكامنة. ولا غروَ أن يكون الكتاب العزيز كذلك أيضاً، لأنّه كتاب صدر من لدن حكيم عليم لا نهاية لوجوده وعلمه، فيجب أن يكون كتابه المنزّل رشحة من رشحات وجوده.

وهذا هو متكلّم قريش وخطيبهم الوليد بن المغيرة المخزومي لمّا جلس إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسمع شيئاً من آيات سورة غافر ، ذهب إلى

قومه ليبيّن موقفه من الكتاب، وقال: واللّه قد سمعت من محمّد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وانّ له لحلاوة، وانّعليه لطلاوة، وانّ أعلاه لمثمر، وإنّأسفله لمغدق، وانّه ليعلو وما يعلى عليه. [1]

فقد أدرك مُنطيق قريش بصفاء ذهنه ما يحتوي عليه القرآن من أسرار وكنوز.

نعم، قد سبقه رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك حيث عَرّف القرآن، بقوله:

«له ظهر وبطن، وظاهره حُكْم، وباطنُه عِلْم، وظاهره أنيق، وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة». [2]

وقد أفاض الإمام أمير الموَمنين (عليه السلام) في بيان أبعاد القرآن غير المتناهية، وقال في خطبة يصف فيها القرآن بقوله: «أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحراً لا يدرك قعره ـ إلى أن قال: ـ و ينابيع العلم و بحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون». [3]

وقد أثبت توالي التأليف حول القرآن الكريم على مختلف الأصعدة، انّه كتاب القرون والأعصار، وحجّة خالدة للناس إلى يوم القيامة، وقد استحوذ الكتاب العزيز على اهتمام بالغ لم يَحظ به أي كتاب آخر.

1-مجمع البيان: ١٠|٣٨٧.
2-الكافي: ٢|٥٩٩، كتاب القرآن.
3-نهج البلاغة: ٢|٢٠٢، طبعة عبده.

---

(7)

إلماع إلى بعض آفاقه اللا متناهية

إنّ من آفاق القرآن و معانيه السامية هو أقسامه، فقد أقسم القرآن الكريم بأُمور مختلفة ربما يبلغ عدد أقسامه إلى أربعين حلفاً أو أكثر، وتمتاز عن الأقسام الرائجة في العصر الجاهلي بأنّها انصبت على ذوات مقدسة أو ظواهر كونية ذات أسرار عميقة، في حين امتاز القسم في العصر الجاهلي بالحلف بالمغاني والمدام [1].

وجمال النساء، إلى غير ذلك من الأُمور المادية الساقطة.

حلف سبحانه في كتابه مضافاً إلى ذاته، بالقرآن ، الملائكة، النفس، الشمس، القمر، السماء، الأرض، اليوم، الليل، القلم، و غير ذلك من الموضوعات التي تحتوي على أسرار مكنونة، ويصحّ في حقّها، قوله سبحانه: (وَانّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظيم). [2]

ينقل السيوطي انّ أوّل من أفرد أقسام القرآن بالتأليف هو شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (المتوفّى٧٥١هـ) ولم يذكر كتاباً غيره، ثمّ جمع السيوطي أقسام القرآن و جعله نوعاً من أنواع علومه، فبحث عنها بحثاً موجزاً لا يتجاوز عن خمس صفحات.[٣] وقال الكاتب الچلبي في «كشف الظنون» ـ بعد سرد ما قام به السيوطي- : وتبعه صاحب مفتاح الكرامة حيث أورده من فروع علم التفسير.[٤]

ولم نقف على كتاب مفرد حول أقسام القرآن في الأوساط الشيعية مع ما

1-المدام والمدامة: الخمر.
2-الواقعة:٧٨.
3-الإتقان في علوم القرآن:٤|٤٦ـ ٥١.
4-كشف الظنون: ١|١٣٧ـ ١٣٨.

فيها من بحوث هامة سوى ما ألّفه ولدي العزيز الروحاني الحائز على مقام الشهادة الشيخ أبو القاسم الرزاقي [١] تحت عنوان «سوگندهای قرآن»، و هو كتاب قيّم حافل بنقل الآراء حول القسم في القرآن، وقد طبع في حياته بتقديم منّا تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته. ثمّ إنّ ابن قيم الجوزية وإن كان أوّل من ألّف ـ حسب ما نعلم- ولكن كتابه يعوزه المنهجية في البحث حيث لم يذكر الأقسام الواردة واحداً تلو الآخر حسب حروف التهجّي أو حسب سور القرآن، وإنّما ذكر أقسام كلّسورة في فصل واحد.

لكن ما ألّفه الشيخ الرزاقي خال من هذه النقيصة، فانّه ألّف كتابه على نمط التفسير الموضوعي، فجعل لكلّ حلف فصلاً خاصاً، وذكر جميع الآيات الواردة في خصوص ذلك الحلف، مثلاً ذكر الآيات التي أقسم الله فيها بنفسه في فصل خاص، كما جمع ما أقسم الله فيه بالليل في سور و آيات مختلفة في مكان واحد.

ولما كان ما ألّفه ابن قيم غير خال عن النقيصة، كما أنّما ألّفه ولدنا البار لا ينتفع به القارئ العربي لأنّه أُلّف باللغة الفارسية، عزمت على تأليف مفرد في هذا الصدد بغية تعميم الفائدة.

وأردفه إن شاء الله بالبحث عن أمثال القرآن.

---

١ ـ استشهد مع مجموعة من العلماء أثر إسقاط الطائرة التي كانت تقلّهم أثناء رحلةداخلية خلال الحرب العراقية الإيرانية من قبل النظام البعثي الغاشم عام ١٤٠٨ هـ | ١٣٦٧هـ.ش.

بحوث تمهيدية في أقسام القرآن

إنّ البحث عن الأقسام الواردة في القرآن الكريم رهن استعراض أُمور في معنى القسم و ما يتبعه من المقسم به والمقسم عليه وأبحاث أُخرى، فنقول:

١. تفسير القسم

إنّ لفظة القسم واضحة المعنى تعادل الحلف واليمين في لغة العرب، ولها معادل في عامة اللغات وإنّما يوَتى به لأجل تأكيد الخبر والمضمون، قال الطبرسي: القسم جملة من الكلام يوَكد بها الخبر بما يجعله في قسم الصواب. [١]

قال السيوطي : القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده، حتى جعلوا مثل: (وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُون) [٢] قسماً، وإن كان فيه إخبار بشهادة، لأنّه لمّا جاء توكيداً للخبر سمّي قسماً. [٣]

ولذلك نقل عن بعض الأعراب، انّه لما سمع قوله تعالى: (وَفِي السَّماءِرِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ* فَوَرَبِّ السَّماءِوَالأَرْضِ انّهُ لحَقّ) . [٤]

صرخ وقال: من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين. [٥]

1-مجمع البيان: ٥|٢٢٥.
2-المنافقون: ١.
3-الإتقان: ٤|٤٦.
4-الذاريات: ٢٢- ٢٣.
5-الإتقان: ٤|٤٦.

---

٢. أركان القسم

إنّ القسم من الأُمور ذات الإضافة وهو فعل فاعل مختار له إضافة إلى أُمور أربعة:

أ. الحالف، ب. ما يحلف به، ج. ما يحلف عليه، د. الغاية من القسم.

أمّا الأوّل: فالحلف عبارة عن فعل الفاعل المختار، فلا يصدر إلاّ منه سواء أكان واجباً كاللّه سبحانه أم ممكناً كالإنسان وغيره.

والذي يتناوله بحثنا في هذا الكتاب هو القسم الذي صدر عن الواجب في كتابه العزيز دون سواه.

فلا نتعرض لما حلف به الشيطان في القرآن وقال: (فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعين) . [١]

ثمّ إنّ أدوات القسم عبارة عن الأُمور الأربعة، أعني: الباء والتاء والواو واللام، وأمثلة الكل واضحة، وأمّا الأخير فكقول الشاعر:

للّهِ لا يبقى على الأيام ذُو حيَدٍ * بمُشمَخر به الطيّانُ والآسُ [٢]

وسيوافيك انّ حرف الباء يجتمع مع فعل القسم دون سائر الأدوات، إذ يحذف فيها فعله، أعني: أقسم.

وأمّا الثاني ـ أي ما يحلف به- :فانّلكلّ قوم، أُموراً مقدّسة يحلفون بها، وأمّا القرآن الكريم فقد حلَفَ سبحانه بأُمور تجاوزت عن الأربعين مقسماً به.

وأمّا الثالث ـ أي ما يحلف عليه- :والمراد هو جواب القسم الذي يراد منه

1-ص :٨٢.
2-والحيد كعنب جمع حيدة وهو القرن فيه عقد، والمشمخر الجبل العالي،والطيّان الياسمين الصحرائي والآس شجر معروف.

التأكيد عليه وتثبيته وتحقيقه، وهذا ما يقال القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده.

ففي الآية التالية تتجلّى الأركان الثلاثة، وتقول: (وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللّهُ مَنْ يَمُوت) .[1]

فقوله: (وأقسموا) فهو الركن الأوّل.

وقوله: (باللّه) هو المقسم به.

وقوله: (لا يبعث اللّه من يموت) هو المقسم عليه

وكثيراً ما يحذف الفعل وذلك لكثرة تردّد القسم في كلامهم ويكتفى بالواو أو التاء في أسماء اللّه.

نعم، يلازم الإقسام بالباء ذكر الفعل، كما في الآية السابقة، وقوله: (يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرضُوكُمْ وَاللّهُ وَرسولُهُ أَحَقُّ أن يُرْضُوهُ) .[2]

وعلى ضوء ذلك فباء القسم يلازم مع ذكر فعله، كما أنّواو القسم وتاءه يلازم مع حذفه، فيقال: أقسم باللّه، ولا يقال: أقسم تاللّه أو أقسم واللّه بل يقتصر على قوله: تاللّه، واللّه، يقول سبحانه: (وَتَاللّهِ لأَكِيدَنّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَن تُولُّوا مُدْبِرِين)[3]، وقوله: (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّ أَنْ قالُوا وَاللّهِ رَبِّنا ما كُنّا مُشْرِكين).)[4]

1-النحل:٣٨.
2-التوبة: ٦٢.
3-الأنبياء:٥٧.
4-الأنعام:٢٣.

وثمة نكتة جديرة بالإشارة وهي أنّأكثر المفسرين حينما تطرّقوا إلى الأقسام الواردة في القرآن الكريم ركّزوا جهودهم لبيان ما للمقسم به من أسرار و رموز كالشمس والقمر في قوله سبحانه: (والشَّمْسِ وَضُحاها * وَالْقَمرِ إِذا تَلاها)[1] أو قوله: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُون) [2] ولكنّهم غفل والعلاقة بين المقسم به والمقسم عليه لاحظ مثلاً قوله سبحانه: (وَالضُّحى* وَاللَيلِ إِذا سَجى* ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى) [3] فالضحى والليل مقسم بهما وقوله: (ما ودَّعك ربّك وما قلى) هو جواب القسم الذي نعبّر عنه بالمقسم عليه، فهناك صلة في الواقع بين المقسم به والمقسم عليه، وهو أنّه لماذا لم يقسم بالشمس ولا بالقمر ولا بالتين ولا بالزيتون بل حلف بالضحى والليل لأجل المقسم عليه أعني قوله: (ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى)؟

وصفوة القول: إنّ كلّ قسم جدير لتحقيق الخبر، ولكن يقع الكلام في كلّقسم ورد في القرآن الكريم أنّه لماذا اختار المقسم به الخاص دون سائر الأُمور الكثيرة التي يقسم بها؟ فمثلاً: لماذا حلف في تحقيق قوله: (ما ودّعك) بقوله: (والضحى والليل) ولم يقسم بالشمس والقمر؟ وهذا هو المهم في بيان أقسام القرآن، ولم يتعرّض له أكثر المفسرين ولا سيما ابن قيم الجوزية في كتابه «التبيان في أقسام القرآن» إلاّ نزراً يسيراً.

ثمّإنّ الغالب هو ذكر جواب القسم، وربما يحذف كما يحذف جواب لو كثيراً، أمّا الثاني فكقوله سبحانه: (وَلَو أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ

1- الشمس: ١-٢.
2- التين: ١.
3- الضحى: ١-٣.

الأَرْضُ أَوْكُلِّمَ بِهِ الْمَوتى)[1] فانّ الجواب محذوف، وهو نظير قوله: «لما آمنوا».

وأمّا الأوّل، فكقوله سبحانه: (ص والقُرآنِ ذِي الذِّكر) [2]، فانّ الحلف بالقرآن الكريم المعرب عن تعظيمه ووصفه بأنّه مذكِّر للعباد يدل على جوابه وهو انّه منزّل من عنده سبحانه غير مفترى، وما أشبه ذلك.

وعلى كلّحال، فالغالب هو الأوّل أي الإتيان بالجواب.

إلى هنا تمّ بيان أركان القسم الثلاثة، وثمة ركن رابع، وهو الغاية المتوخّاة من القسم، فنقول: إنّ الغاية إمّا هي تحقيق الخبر ودعوة المخاطب إلى الإيمان والإذعان به، كما هو الغالب، أو إلفات النظر إلى عظمة المقسم به، وما يكمن فيه من أسرار ورموز، أو لبيان قداسته وكرامته، كما في قوله:(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُون) . [3]

ومن خلال هذا البيان، يتضح الجواب على ما ربما يقال من أنّحلفه سبحانه إن كان لأجل الموَمن فهو يصدقه بلا حلف، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده.

والجواب: انّ إيمان الموَمن بصدق إخباره سبحانه لا ينافي تأكيده بالحلف، مضافاً إلى ما عرفت من أنّ حلفه سبحانه بشيء إشارة إلى كرامته وقداسته أو إلى عظمته وما يكمن فيه من أسرار ورموز.

١- الرعد:٣١.
٢- ص:١.
٣- الحجر:٧٢.

2- (14)

٣- ٣. جواز الحلف بغير اللّه سبحانه

٤- تضافر الحلف بغيره سبحانه في الكتاب العزيز والسنّة النبوية، أمّا الكتاب فسيوافيك حلفه بأشياء كثيرة، وأمّا السنّة فقد حلف النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في غير مورد بغير اسم اللّه.

١. فقد أخرج مسلم في صحيحه: أنّه جاء رجل إلى النبي ، فقال: يا رسول اللّه أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: «أما ـ و أبيك- لتنبئنَّه أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل البقاء». (١)

٢. أخرج مسلم أيضاً: جاء رجل إلى رسول اللّه ـ من نجد- يسأل عن الإِسلام، فقال رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) : «خمس صلوات في اليوم والليل».

٥- فقال: هل عليَّ غيرهنّ؟

٦- قال: «لا...إلاّ أن تطوع»، وصيام شهر رمضان».

٧- فقال: هلّ عليَّ غيره؟

٨- قال: «لا... إلاّ تطوّع، وذكر له رسول اللّه الزكاة.

٩- فقال الرجل: هل عليّ غيره؟

١٠- قال: «لا... إلاّ أن تطوّع».

١١- فأدبر الرجل وهو يقول: واللّه لا أزيد على هذا ولا أنقص منه.

١٢- فقال رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) : «أفلح ـ وأبيه ـ إن صدق». أو قال: «دخل الجنة ـ و أبيه- إن صدق». (٢)

13-

١٤- -1صحيح مسلم:٣|٩٤، باب أفضل الصدقة من كتاب الزكاة.
-2صحيح مسلم:١|٣٢، باب ما هو الإِسلام.

15-

16-(15)

١٧- وقد حلف غير واحد من الصحابة بغيره سبحانه، فهذا أبو بكر بن أبي قحافة على ما يرويه مالك في موطّئه: أنّ رجلاً من أهل اليمن أقطع اليد والرجل قدم فنزل على أبي بكر فشكا إليه أنّ عامل اليمن قد ظلمه، فكان يصلي من الليل، فيقول أبو بكر: «وأبيك ما ليلك بليل سارق». [١]

١٨- وهذا علي بن أبي طالب (عليه السلام) قد حلف بغيره سبحانه في غير واحد من خطبه:

١٩- ١. «ولعمري ما عليّمن قتال من خالف الحق وخابط الغي من إدهان ولا إيهان». [٢]

٢٠- ٢. «ولعمري ما تقادمت بكم ولا بهم العهود». [٣]

٢١- إلى غير ذلك من الأقسام الواردة في كلامه (عليه السلام) وسائر أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) .

٢٢- نعم ثمة أحاديث استدل بها على المنع عن الحلف بغير الله، غير أنّها ترمي إلى معنى آخر كما سيوافيك.

٢٣- الحديث الأوّل

٢٤- إنّ رسول الله سمع عمر، وهو يقول:وأبي، فقال: «إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو يسكت». [٤]

والجواب: انّالنهي عن الحلف بالآباء قد جاء لأنّهم كانوا ـ في الغالب- مشركين وعبدة للأوثان فلم يكن لهم حرمة ولا كرامة حتى يحلف أحد بهم،

25-

٢٦- 1-شرح الزرقاني على موطأ مالك: ٤|١٥٩ برقم ٥٨٠.
2-نهج البلاغة: الخطبة ٢٣و٨٥.
3-نهج البلاغة: الخطبة ٢٣و٨٥.
4-سنن ابن ماجة: ١|٢٧٧؛ سنن الترمذي: ٤|١٠٩.

27-

٢٩- ولأجل ذلك نرى أنّالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جعل آباءَهم قرناء مع الطواغيت مرّة، وبالأنداد ـ أي الأصنام ـ ثانية، وقال: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت». [١]

٣٠- وقال أيضاً: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأُمهاتكم ولا بالأنداد». [٢]

٣١- وهذان الحديثان يوَكدان على أنّالمنهي عنه هو الحلف بالآباء الكافرين الذين كانوا يعبدون الأنداد والطواغيت، فأين هو من حلف المسلم بالكعبة والقرآن والأنبياء والأولياء في غير القضاء والخصومات؟

٣٢- الحديث الثاني

٣٣- جاء ابنَ عمر رجل فقال: أحلف بالكعبة؟ قال له: لا، ولكن إحلف بربِّ الكعبة، فانّ عمر كان يحلف بأبيه، فقال رسول اللّه له: «لا تحلف بأبيك، فانّ من حلف بغير اللّه فقد أشرك». [٣]

٣٤- إنّ الحديث يتألف من أمرين:

٣٥- أ: قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : «من حلف بغير اللّه فقد أشرك».

٣٦- ب: اجتهاد عبد اللّه بن عمر، حيث عدّ الحلف بالكعبة من مصاديق حديث النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) .

٣٧- أمّا الحديث فنحن نذعن بصحته، والقدر المتيقن من كلامه ما إذا كان المحلوف به شيئاً يعد الحلف به شركاً كالحلف بالأَنداد والطواغيت والآباء الكافرين. فهذا هو الذي قصده النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يعم الحلف بالمقدسات كالقرآن وغيره.

38-

٣٩- ١- سنن النسائي: ٧|٧؛ سنن ابن ماجة: ١|٢٧٨.
٢- سنن النسائي:٧|٩.
٣- سنن النسائي: ٧|٨.

40-

41-(17)

٤٢- وأمّا اجتهاد ابن عمر حيث عدّالحلف بالكعبة من مصاديق الحديث، فهو اجتهاد منه وحجّة عليه دون غيره.

٤٣- وأمّا انّ الرسول عدّحلف عمر بأبيه من أقسام الشرك فلأجل أنّ أباه كان مشركاً، وقد قلنا إنّالرواية ناظرة إلى هذا النوع من الحلف.

٤٤- ومجمل القول: إنّ الكتاب العزيز هو الأُسوة للمسلمين عبر القرون، فإذا ورد فيه الحلف من اللّه سبحانه بغير ذاته سبحانه من الجماد والنبات والإِنسان فيستكشف منه أنّه أمر سائغ لا يمت إلى الشرك بصلة، وتصوّر جوازه للّه سبحانه دون غيره أمر غير معقول، فانّه لو كان حقيقة الحلف بغير اللّه شركاً فالخالق والمخلوق أمامه سواء.

٤٥- نعم الحلف بغير اللّه لا يصحّ في القضاء وفضّ الخصومات، بل لابدّمن الحلف باللّه جلّجلاله أو بإحدى صفاته التي هي رمز ذاته، وقد ثبت هذا بالدليل ولا علاقة له بالبحث.

٤٦- وأمّا المذاهب الفقهية فغير مجمعين على أمر واحد.

٤٧- أمّا الحنفية، فقالوا: بأنّالحلف بالآب والحياة، كقول الرجل: وأبيك، أو: وحياتك وما شابه، مكروه.

وأمّا الشافعية، فقالوا: بأنّالحلف بغير اللّه ـ لو لم يكن باعتقاد الشرك- فهو مكروه

وأمّا المالكية، فقالوا: إنّفي القسم بالعظماء والمقدسات ـ كالنبي و الكعبة- فيه قولان: الحرمة والكراهة، والمشهور بينهم: الحرمة.

48-

49-(18)

٥٠- وأمّا الحنابلة، فقالوا: بأنّ الحلف بغير اللّه وبصفاته سبحانه حرام، حتى لو كان حلفاً بالنبي أو بأحد أولياء اللّه تعالى.

٥١- هذه فتاوى أئمّة المذاهب الأربعة [١] ولسنا الآن بصدد مناقشتهم.

٥٢- وكان الحري بفقهاء المذاهب الأربعة ولا سيما في العصر الراهن فتح باب الاجتهاد والرجوع إلى المسألة والنظر إليها بمنظار جديد إذ كم ترك السلف للخلف. على أنّ نسبة الحرمة إلى الحنابلة غير ثابتة أيضاً، لأنّ ابن قدامة يصرّح في كتاب «المغني» ـ الذي كتبه على غرار فقه الحنابلة ـ: أنّ أحمد بن حنبل أفتى بجواز الحلف بالنبي، وأنّه ينعقد لأنّه أحد ركني الشهادة.

٥٣- وقال أحمد: لو حلف بالنبي انعقد يمينه، فإن حنث لزمته الكفارة. [٢]

٥٤- إكمال

٥٥- قد ذكر السيوطي في كتاب «الإتقان»، وقال: كيف أقسم بالخلق وقد ورد النهي عن القسم بغير اللّه؟

٥٦- ثمّذكر أجوبة ثلاثة، وهي:

٥٧- الأوّل: انّه على حذف مضاف، أي وربّالتين وربّ الشمس، وكذا الباقي.

٥٨- الثاني: انّالعرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون.

59-

١ـ انظر الفقه على المذاهب الأربعة:٢|٧٥، كتاب اليمين، مبحث الحلف بغير اللّهتعالى. 60-

٢ـ المغني: ١١|٢٠٩.

61-

62-(19)

٦٣- الثالث: انّالإقسام إنّما تكون بما يعظمه المقسم أو يُجلُّه وهو فوقه واللّه تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته، لأنّها تدل على بارئ وصانع.

٦٤- وقال ابن أبي الاصبع في «اسرار الفواتح»: القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع، لأنّ ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل

٦٥- وأخرج ابن أبي حاتم، عن الحسن، قال: إنّ اللّه يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلاّ باللّه. [١]

٦٦- ولا يخفى ضعف الأجوبة.

٦٧- أمّا الأوّل: فانّمعنى ذلك إرجاع الأقسام المختلفة إلى قسم واحد وهو الرب، مع أنّه سبحانه تارة يقسم بنفسه، ويقول:(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطين)[٢]، وأُخرى بالتين والزيتون والصافات والشمس، فلو كان الهدف القسم بالرب فما فائدة هذا النوع من الأقسام حيث

يضيف نفسه إلى واحد من مخلوقاته؟ فانّالعظمة للّه لا للمضاف إليه، ولو كانت له عظمة فإنّما هي مقتبسة من الرب.

٦٨- وأمّا الثاني: فمعنى ذلك أنّه سبحانه جرى على ما كان عليه العرب في العصر الجاهلي، وقد هدم بعمله ما شرعه من النهي عن القسم بغير اللّه.

٦٩- وأمّا الثالث: فيكتنفه كثير من الغموض، ولا يعلم كيفية رفع الإشكال، وأمّا ما نقله عن ابن أبي الاصبع فيرجع إلى المعنى الأوّل، وهو أنّ القسم بالمخلوق قسم بالخالق.

70-

71- ١- الإتقان:٤|٤٧.
٢- مريم:٦٨.

72-

73-(20)

٧٤- وما نقله عن ابن أبي حاتم، من أنّ اللّه يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلاّ باللّه، أمر غير واضح، لأنّإقسام المخلوق بغير اللّه لو كان من مقولة الشرك فالقاعدة لا تقبل التخصيص، فيكون قسمه سبحانه بغير اللّه أيضاً شركاً وعبادة.

٧٥- وإن كان قسمه سبحانه لأجل بيان قداسته وعظمته أو الأسرار المكنونة فيه، فهو أمر مشترك بين الخالق والمخلوق.

٧٦- والجواب: انّالنهي عن الحلف بغير اللّه مختص بالطواغيت والأنداد والمشركين من الآباء، وأمّا غيرهم فلم يرد فيهم نهي.

٧٧- منهجنا في تفسير أقسام القرآن

٧٨- إنّه سبحانه تبارك و تعالى حلف بذوات مقدسة بما يربو على الأربعين مرة، فتفسيرها يمكن أن يتم باحدى الصور التالية:

٧٩- أ: أن نتناول تلك الأقسام بالبحث طبق حروف التهجي ككتاب اللغة.

٨٠- ب: أن نتناولها بالبحث حسب أفضلية المقسم به، فنقدم الحلف باللّه أو الرب على الحلف بعمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحياته، وهو على الحلف بالملائكة، وهكذا، وعلى ذلك يجب عقد واحد وأربعين فصلاً على النحو التالي:

٨١- ١. الحلف بلفظ الجلالة وفيه فصلان:

٨٢- أ. الحلف بلفظ الجلالة.

٨٣- ب. الحلف بالرب.

84-

85-(21)

٨٦- ٢. الحلف بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وفيه فصلان:

٨٧- أ. بعمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

٨٨- ب. شاهد

٨٩- ٣. الحلف بالقرآن، وفيه فصلان:

٩٠- أ. بالقرآن

٩١- ب. بالكتاب

٩٢- ٤. الحلف بالملائكة، وفيه أربعة فصول:

٩٣- أ. الصافات، الزاجرات، التاليات.

٩٤- ب. الذاريات، الحاملات ، الجاريات، المقسمات.

٩٥- ج. المرسلات، العاصفات، الناشرات، الفارقات، الملقيات

٩٦- د. النازعات، الناشطات، السابحات، السابقات، المدبرات.

٩٧- ٥. الحلف بالقلم وفيه فصلان:

٩٨- أ.القلم

٩٩- ب. وما يسطرون

١٠٠- ٦. الحلف بالقيامة، وفيه ثلاثة فصول:

١٠١- أ. القيامة

١٠٢- ب. اليوم الموعود

١٠٣- ج. مشهود

104-

105- (22)

١٠٦- ٧. الحلف بالنفس

١٠٧- ٨. الحلف بالشفع والوتر

١٠٨- ٩. الحلف بالولد والوالد.

١٠٩- ١٠. الحلف بالأمكنة، وفيه ثلاثة فصول:

١١٠- أ. الحلف بالبلد الأمين

١١١- ب. الحلف بطور سينين

١١٢- ج. الحلف بالبيت المعمور

١١٣- ١١. الحلف بالأزمنة، وفيه ثمانية فصول:

١١٤- أ. الحلف بالصبح

١١٥- ب. الحلف بالفجر

١١٦- ج. الحلف باليوم

١١٧- د. الحلف بالضحى

١١٨- هـ. الحلف بالنهار

١١٩- و. الحلف بالشفق

١٢٠- ز. الحلف بالليل

١٢١- ح. الحلف بالعصر

١٢٢- ١٢. الحلف بالأرض والأجرام السماوية، وفيه ثمانية فصول:

١٢٣- أ. الحلف بالشمس وضحاها

124-

125- (23)

١٢٦- ب. الحلف بالكواكب.

١٢٧- ج. الحلف بالنجم

١٢٨- د. الحلف بمواقع النجوم

١٢٩- هـ. الحلف بالأرض

١٣٠- و. الحلف بالقمر

١٣١- ز. الحلف بالخنس الجوار

١٣٢- ح. الحلف بالطارق

١٣٣- ١٣. الحلف بالظواهر الجوية، وفيه أربعة فصول:

١٣٤- أ. الحلف بالسماء

١٣٥- ب. الحلف بالذاريات

١٣٦- ج. الحلف بالحاملات

١٣٧- د. الحلف بالجاريات

١٣٨- ج: أن نتناولها حسب السور القرآنية، فنفسر ما ورد من الأقسام في سورة الشمس مرة واحدة، أو نفسر ما ورد في سورة الفجر أو البلد في مكان واحد، وعلى ذلك يجب عقد عدة فصول حسب عدد السور التي ورد فيها الحلف.

١٣٩- وقد سلك ابن قيم الجوزية (المتوفّى٧٥١هـ) هذا المنهج، فراح يبحث عن أقسام القرآن حسب السور.

١٤٠- فابتدأ بتفسير الأقسام الواردة بالنحو التالي:

١٤١- ١. القيامة، ٢. الشمس، ٣. الفجر، ٤. البلد، ٥. التين، ٦. الليل، ٧. الضحى، ٨.

142-

143- (24)

١٤٤- العاديات ، ٩. العصر، ١٠. البروج، ١١. الطارق، ١٢. الانشقاق، ١٣. التكوير، ١٤. النازعات، ١٥. المرسلات، ١٦. القيامة، ١٧. المدثر، ١٨. الحاقة، ١٩. المعارج، ٢٠. القلم، ٢١. الواقعة، ٢٢. النجم، ٢٣. الطور، ٢٤. الذاريات، ٢٥. ق، ٢٦. يس، ٢٧. الصافات، ٢٨. الحجر، ٢٩. النساء.

١٤٥- فقد عقد ٢٩ فصلاً حسب عدد السور التي ورد فيها الأقسام، وهذا المنهج لا يخلو من مناقشة، لأنّه سبحانه ربما حلف بالرب في سور مختلفة، فلو كان محور البحث هو السور يلزم عليه تكرار البحث حسب تعدد وروده في السور المختلفة، وهذا بخلاف ما إذا جمع الآيات التي حلف فيها القرآن بربوبيته، ويبحث فيها دفعة واحدة، فهذا النوع من البحث يكون خالياً عن التكرار والتطويل.

١٤٦- مضافاً إلى أنّه لم يراع ترتيب السور حتى فيما اختاره من ذكر السور القصيرة متقدمة على السور الطويلة.

١٤٧- والعجب أنّه بحث عن الحلف الوارد في سورة القيامة مرّتين. [1]

١٤٨- د: وهناك منهج رابع سلكه ولدنا الروحاني الشهيد الشيخ أبو القاسم الرزاقي (قدس الله سره) فقد أفرد لكلّقَسَمٍ فصلاً خاصاً.

١٤٩- ويوَخذ على هذا المنهج أنّه سبحانه حلف في بعض السور بموضوعات مختلفة، كسورة الشمس حيث حلف فيها بالشمس والقمر وفي الوقت نفسه بالنفس الإنسانية وجعل للجميع جواباً واحداً.

١٥٠- وبما انّمن البحوث المهمة في أقسام القرآن هو بيان الصلة بين المقسم به

151-

152- 1- تارة في ص ٣٥ من كتابه المعروف «التبيان في أقسام القرآن» تحت عنوانفصل «القسم في سورة القيامة»، وأُخرى بنفس العنوان في ص ١٤٧، فلاحظ.

153-

١٥٥- والمقسم عليه، فعلى ذلك المنهج يجب أن يتكرر البحث في أكثر الفصول بالنسبة إلى أُمور حلف بها سبحانه مرّة واحدة وذلك كالشمس و القمر والنفس الإنسانية، وهذا مستلزم للإطناب.

١٥٦- ومن أجل أن نتلافى هذه المشكلة، نقول:

١٥٧- إنّ أقسام القرآن على قسمين:

١٥٨- الأوّل: ما نطلق عليه الحلف المفرد، والمراد منه ما إذا حلف سبحانه بشيء مفرد و لم يضم إليه حلفاً آخر، سواء تكرر في سور أُخرى أو لا ، مثلاً: حلف بعمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحياته مرة واحدة ولم يقرن به حلفاً آخر، بخلاف لفظ الرب فقد حلف به مفرداً ولكنّه تكرر في بعض السور.

١٥٩- الثاني: ما نطلق عليه الحلف المتعدد، والمراد منه ما إذا حلف سبحانه بأُمور مختلفة جمعها في آية واحدة أو آيتين، وجعل للجميع جواباً واحداً، كالحلف بالشمس والقمر إلى أن يصل إلى النفس الإنسانية.

١٦٠- فنعقد لكلّ حلف مفرد فصلاً على حدة، سواء تكرر بهذا النحو في سور أُخرى أو لا، مراعين في ذلك الأفضل فالأفضل فنقدم الحلف بالله والرب على حياة النبي وعمره وهو على الملائكة.

١٦١- وأمّا الحلف المتعدد فنعقد لكلّ سورة تضم ذلك الحلف فصلاً، كما عقدنا لسورة الشمس فصلاً، ولسورة الليل فصلاً آخر، وإن تكرر فيه المحلوف فيه أعني الليل، و بذلك يمتاز هذا المنهج عن سائر المناهج المذكورة، ويجمع كافة محاسنها، ويصان عن المؤاخذات التي ربما تطرح على المنهجين الأخيرين.

١٦٢- وأخذنا بتقسيم الكتاب إلى قسمين وخصصنا القسم الأوّل بالأحلاف المفردة، والثاني بالأحلاف المتعددة، وإليك إجمال فصول القسمين:

163-

164- (26)

١٦٥- القسم الأوّل، وفيه فصول:

١٦٦- الفصل الأوّل: القسم بلفظ الجلالة.

١٦٧- الفصل الثاني: القسم بالربِّ.

١٦٨- الفصل الثالث: القسم بعمر النبي.

١٦٩- الفصل الرابع: القسم بالقرآن الكريم.

١٧٠- الفصل الخامس: القسم بالعصر.

١٧١- الفصل السادس: القسم بالنجم.

١٧٢- الفصل السابع: القسم بمواقع النجوم.

١٧٣- الفصل الثامن: القسم بالسماء ذات الحبك.

القسم الثاني، وفيه فصول:

١٧٤- الفصل الأوّل: القسم في سورة الصافات

١٧٥- الفصل الثاني: القسم في سورة الذاريات.

١٧٦- الفصل الثالث: القسم في سورة الطور.

١٧٧- الفصل الرابع: القسم في سورة القلم.

١٧٨- الفصل الخامس: القسم في سورة الحاقة.

١٧٩- الفصل السادس: القسم في سورة المدثر.

١٨٠- الفصل السابع: القسم في سورة القيامة.

١٨١- الفصل الثامن: القسم في سورة المرسلات.

182-

183- (27)

١٨٤- الفصل التاسع: القسم في سورة النازعات.

١٨٥- الفصل العاشر: القسم في سورة التكوير.

١٨٦- الفصل الحادي عشر: القسم في سورة الانشقاق.

١٨٧- الفصل الثاني عشر: القسم في سورة البروج.

١٨٨- الفصل الثالث عشر: القسم في سورة الطارق.

١٨٩- الفصل الرابع عشر: القسم في سورة الفجر.

١٩٠- الفصل الخامس عشر: القسم في سورة البلد.

١٩١- الفصل السادس عشر: القسم في سورة الشمس.

١٩٢- الفصل السابع عشر: القسم في سورة الليل.

١٩٣- الفصل الثامن عشر: القسم في سورة الضحى.

١٩٤- الفصل التاسع عشر: القسم في سورة التين.

١٩٥- الفصل العشرون: القسم في سورة العاديات.

196-

197- (28)

198-

199- (29)

٢٠٠- القسم الأوّل: القسم المفرد

٢٠١- وفيه فصول:

٢٠٢- الفصل الأوّل

٢٠٣- القسم بلفظ الجلالة

٢٠٤- حلف سبحانه تبارك و تعالى بلفظ الجلالة مرّتين ضمن آيتين من سورة النحل، وهو أعظم قسم ورد في القرآن الكريم.

٢٠٥- قال سبحانه:

٢٠٦- أ: (وَيَجْعَلُونَ لما لا يَعْلَمُونَ نَصيباً مِمّا رَزَقْناهُمْ تَاللّهِ لَتُسْئَلُنَّعَمّا كُنْتُمْ تَفْتَرُون) . [١]

٢٠٧- ب: (تَاللّهِ لَقَدْأَرْسَلْنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُالشَّيطانُ أَعْمالُهُمْ فَهُوَ وَليُّهُمُالْيَومَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ) . [٢]

٢٠٨- تفسير الآية الأُولى

٢٠٩- دلّت الآية الأُولى على جهل المشركين، حيث كانوا يجعلون نصيباً مما رزقوا للأصنام التي لا تضر ولا تنفع ويتقربون بذلك إليهم، وقال سبحانه: (وَيَجْعَلُونَ لما لا يَعْلَمونَ نَصيباً مِمّا رَزَقْناهُمْ تَاللّهِ لتسئلنَّ عَمّا كُنْتُمْ تفتَرون) .

210-

١- النحل:٥٦.

211-

٢- النحل:٦٣.

212-

213- (30)

٢١٤- وقد حكى سبحانه عملهم هذا في سورة الأنعام، وقال: (وَجَعَلُوا لِلّهِ مِمّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلى اللّهِوَما كانَ لِلّهِ فَهُو يَصِلُإِلى شُرَكائِهِمْ ساءَما يَحْكُمُون) .[1] فالكفار لأجل جهلهم بمبدأ الفيض كانوا يتقرّبون إلى الآلهة الكاذبة ـ أعني: الأصنام والأوثان- بتخصيص شيء مما رزقوا لها، مع أنّه سبحانه هو الأولى بالتقرّب لا غير ، لأنّه مبدأ الفيض و ما سواه ممكن محتاج في وجوده وفعله، فكيف يتقربون إليه؟!

٢١٥- والعجب أنّهم يجعلون نصيباً لله ونصيباً لشركائه، فما كان لله فهو يصل إلى شركائهم، وما كان لشركائهم لا يصل إلى الله سبحانه، وقد حكاه سبحانه في سورة الأنعام، وقال: (وَجَعَلُوا لِلّهِ مِمّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَلِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلى اللّهِوَما كانَ لِلّهِ فَهُو يَصِلُإِلى شُرَكائِهِمْ ساءَما يَحْكُمُون) .[2]

٢١٦- وحاصل الآية: أنّهم كانوا يجعلون من الزرع والمواشي حظاً لله وحظاً للأوثان، وقد أسماها سبحانه (شركائهم)، لأنّهم جعلوا الأوثان شركاءهم، حيث جعلوا لها نصيباً من أموالهم ينفقونه عليها فشاركوها في نعمهم .

٢١٧- وقد ذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى(فَما كانَلِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلى اللّهِوَما كانَ لِلّهِ فَهُو يَصِلُإِلى شُرَكائِهِم) وجوهاً:[3]

٢١٨- أوّلها: انّهم كانوا يزرعون لله زرعاً وللأصنام زرعاً، فكان إذا زكا الزرع الذي

219-

٢٢٠- 1-الأنعام:١٣٦.

2-الأنعام:١٣٦.

3-لاحظ مجمع البيان: ٢|٣٧٠.

221-

٢٢٣- زرعوه لله ولم يزك الزرع الذي زرعوه للأصنام جعلوا بعضه للأصنام وصرفوه إليها، ويقولون إنّ الله غنيّ والأصنام أحوج؛ وإن زكا الزرع الذي جعلوه للأصنام ولم يزك الزرع الذي زرعوه لله لم يجعلوا منه شيئاً لله، وقالوا: هو غني؛ وكانوا يقسمون النعم فيجعلون بعضه لله وبعضه للأصنام فما كان لله أطعموه الضيفان، وما كان للصنم أنفقوه على الصنم، وهذا هو المرويّ عن الزجاج وغيره.

٢٢٤- ثانيها: انّه كان إذا اختلط ما جُعل للأصنام بما جُعل لله تعالى ردّوه، وإذا اختلط ما جعل لله بما جُعل للأصنام تركوه، وقالوا :الله أغنى، وإذا تخرق الماء من الذي لله في الذي للأصنام لم يسدُّوه، وإذا تخرق من الذي للأصنام في الذي لله سدّوه ، وقالوا: الله أغنى. عن ابن عباس وقتادة، وهو المروي عن أئمتنا «عليهم السلام» .

٢٢٥- وثالثها: انّه كان إذا هلك ما جعل للأصنام بدّلوه مما جعل لله، وإذا هلك ما جعل لله لم يبدّلوه مما جعل للأصنام. عن الحسن والسدي.[1]

٢٢٦- وفي الحقيقة انّهذا النوع من العمل، أي توزيع القربان بين الله والآلهة، كان تزييناً من شركائهم وهم الشياطين أو سدنة الأصنام حيث زينوا لهم هذا العمل وغيره من الأعمال القبيحة ، قال تعالى: (وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِكَثيرٍ مِنَ الْمُشْرِكينَ قَتْلَ أَولادِهِمْ شُرَكاؤُهم لِيُرْدُوهُمْ (أي ليهلكوهم بالإغواء)وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَو شاءَ اللّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ). [٢]

٢٢٧- تفسير الآية الثانية

٢٢٨- يقول سبحانه: (تَاللّهِ لَقَدْأَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيّنَ لَهُمُ الشَّيطان)

229-
230- 1- مجمع البيان: ٢|٣٧٠.
2- الأنعام:١٣٧.
231-

٢٣٣- أَعمالَهُمْ) فهوَلاء كفروا وضلّوا وكذّبوا الرسل وقد زيّن الشيطان أعمالهم (فهو وليّهم اليوم) أي الشيطان الذي زين لهم أعمالهم فهو أيضاً يقوم بنفس هذا العمل فالولي واحد وإن كان المتولى عليه مختلفاً، وبالتالي انّ الشيطان وليهم اليوم في الدنيا يتولونه ويتبعون إغواءه (ولهم عذاب أليم).

٢٣٤- إلى هنا انتهينا من تفسير الآيتين، فلنذكر المقسم به، وجواب القسم، وما هي الصلة بينهما.

٢٣٥- المقسم به

٢٣٦- المقسم به في الآيتين هو لفظ الجلالة الذي جاء ذكره في القرآن الكريم حوالي ٩٨٠ مرة.

٢٣٧- وقد ذهب غير واحد من أصحاب المعاجم إلى أنّ أصله، إله، فحذفت همزته وأدخل عليه الألف واللام فخص بالباري تعالى ، قال تعالى: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْتَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً) . [١]

ثمّإنّ «إله» إما من أله يأله فهو الإله بمعنى المعبود، أو من أله ـ بالكسر ـ أي تحير، لتحير العقول في كنهه.

٢٣٨- أقول: سيوافيك بأنّالإله ليس بمعنى المعبود، وأنّمن فسره به فقد فسره بلازم المعنى، وعلى فرض ثبوته فلفظ الجلالة علم بالغلبة وليس فيه إشارة إلى هذه المعاني من العبادة والتحيّر، وقد كان مستعملاً دائراً على الألسن قبل نزول القرآن تعرفه العرب في العصر الجاهلي، يقول سبحانه: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ)

239-
240- 1- مريم:٦٥.
241-

٢٤٣- لَيَقُولُنَّ اللّه) . [١] فقد أشار بلفظ الجلالة إلى خالق السماوات والأرض دون تبادر مفهوم العبادة أو التحير منه.

٢٤٤- وممّا يدل على كونه علماً انّه يوصف بالأسماء الحسنى وسائر أفعاله المأخوذة من تلك الأسماء من دون عكس، فيقال اللّه الرحمن الرحيم، أو يقال علم اللّه ورزق اللّه، ولا يقع لفظ الجلالة صفة لشيء منها، ولا يوَخذ منه ما يوصف به شيء منها، وهذا يدل على أنّه علم وليس بوصف، فيكون اسماً للذات الواجبة الوجود المستجمعة لجميع صفات الكمال، ولهذا اللفظ في جميع الألسنة معادل كلفظة "خدا" في لغة الفرس و"حراً" في لغة الافرنج و "تاري" في لغة الترك. [٢]

٢٤٥- جواب القسم

٢٤٦- أمّا جواب القسم في الآية الأُولى، فهو عبارة عن قوله: (لتسئلن عمّا كنتم تفترون) .

٢٤٧- كما أنّجوابه في الآية الثانية، هو قوله: (لَقَدْأرْسلنا إلى أُمم من قَبْلك) .

٢٤٨- فقد أقسم سبحانه في هاتين الآيتين بلفظ الجلالة لغاية التأكيد على أمرين:

٢٤٩- أ: انّهم مسوَولون يوم القيامة عن افترائهم الكذب.

٢٥٠- ب: انّه سبحانه لم يترك الخلق سدى بل أرسل إليهم رسلاً، لكن الشيطان حال بينهم و بين أُممهم، وتشهد على ذلك سيرة عاد و ثمود بل اليهود والنصارى والمجوس.

251-

٢٥٢- ١ـ الزخرف:٨٧.

٢ـ انظر الميزان: ١|١٨.

253- (34)

٢٥٤- ما هي الصلة بين المقسم به والمقسم عليه؟

٢٥٥- هذا هو المهم في أقسام القرآن، وقد أُهمل في كثير من التفاسير، ويمكن أن يقال:

٢٥٦- أمّا الآية الأُولى، فالقسم بلفظ الجلالة لأجل أنّ المشركين كانوا يجعلون للّه نصيباً مما زرعوا من الحرث والأنعام، وكانوا يقولون: هذا للّه، فناسب أن يقسم به لأجل أنّه افتراء عظيم.

٢٥٧- وأمّا الآية الثانية، فلأنّه جاء في ذيل جواب القسم ولاية الشيطان، كما قال: (فهو وليّهم اليوم)وبما انّ الولاية للّه سبحانه كما قال تعالى: (هنالِكَ الولايةُ للّهِ الحق) [١] يس ناسب الحلف باللّه الذي هو الوليّ دونَ الشيطان، كما عليه المشركون.

258-

259- 1- الكهف: ٤٤.

260-

261- (35)

٢٦٢-

٢٦٣- الفصل الثاني

٢٦٤- القسم بالربِّ

٢٦٥- أقسم سبحانه بلفظ «رب» بصور مختلفة:

٢٦٦- تارة حلف به بلفظ «فلا وربك»

٢٦٧- وأُخرى حلف به مقروناً بلفظ (لا) وقال: «فلا أُقسم».

٢٦٨- وثالثة حلف به بلفظ «فوربّك».

٢٦٩- ورابعة بلفظ «بلى و ربّـي».

٢٧٠- وخامسة بلفظ «اي وربي».

٢٧١- وسادسة بلفظ «فوربّالسماء والأرض».

٢٧٢- وعلى أية حال فالمقسم به هو الرب،وإليك الآيات:

٢٧٣- ١. (فَلا وَرَبِّكَ لا يُوَْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْليماً).[1]

٢٧٤- ٢.(فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنّا لَقادِرُونَ *عَلى أَنْنُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحنُ بِمَسْبُوقينَ) .[2]

٢٧٥- ٣. (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطين) .[3]

276-

٢٧٧- 1-النساء:٦٥.
2- المعارج:٤٠- ٤١.
3-مريم:٦٨.

278-

279- (36)

٢٨٠- ٤. (فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعينَ* عَمّا كانُوا يَعْمَلُون) .[1]

٢٨١- ٥. (وَقالَالَّذينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السّاعَةُ قُلْبَلى وَرَبّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيب) .[2]

٢٨٢- ٦. (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْلَنْ يُبْعَثُوا قُلْبلى وَرَبّي لَتُبعثُنّ ثُمَّ لَتُنَبَّوَنَّ بما عَمِلْتُمْوَذلِكَ عَلى اللّهِ يَسير) .[3]

٢٨٣- ٧.(وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إي وَرَبّي انّهُ لحقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزين) .[4]

٢٨٤- ٨. (فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالأَرْضِ إِنّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنّكُمْتَنْطِقُون).[5]

٢٨٥- تفسير الآيات

٢٨٦- تشير الآية الأُولى إلى مقام من مقامات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فانّله ـ حسب ما دلّعليه الكتاب و السنة في إدارة رحى المجتمع ـ مقامات ثلاثة:

٢٨٧- أ: السياسية وتدبير الأُمور: يقول سبحانه: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاة وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوا عَنِ الْمُنْكَرِوَلِلّهِ عاقِبَةُ الأُمور).[6] ويقول في حقّ النبي خاصة: (النَّبِيُّ أَولَى بِالْمُوَْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)[7] وليس الأولى بالموَمنين من أنفسهم فضلاً عن أموالهم غير السائس الحاكم العام.

288-

٢٨٩- ١- الحجر:٩٢-٩٣.
٢- سبأ:٣.
٣- التغابن:٧.
٤- يونس:٥٣.
٥- الذاريات:٢٣.
٦- الحج:٤١.
٧- الأحزاب:٦.

290-

٢٩٢- ب: القضاء وفضُّ الخصومات: يقول سبحانه في حقّداود: (يا داوُدُ إِنّا جَعلْناكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلّكَ عَنْ سَبيلِاللّهِ إِنّ الّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبيلِاللّهِلَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بِما نَسُوا يَومَ الْحِساب) [١] وفي حقّالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ إِنَّ اللّهَيُحِبُّ الْمُقْسِطينَ) . [٢]

٢٩٣- ج: الإفتاء وبيان الأحكام: يقول سبحانه: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَة) [٣] س وقد كان الرسول ـ بنص هذه الآيات- جامعاً لهذه المقامات الثلاثة فكان سائساً وحاكماً، وقاضياً وفاصّاً للخصومات، ومفتياً ومبيّناً للأحكام.

٢٩٤- ومن الواضح بمكان أنّ فضّ الخصومات لا يتحقق إلاّ بقضاء قاض مطاع رأيه ونافذ فصله، وقد كان بعض المنتمين إلى الإسلام لم يعيروا أهمية لقضائه، فنزلت الآية تأمر أوّلاً بإطاعته وانّ كلّرسول واجب الطاعة.يقول سبحانه: (وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ لِيُطاع بِإِذْنِ اللّه) . [٤]

٢٩٥- ثمّ تشير الآية التالية إلى أنّ الإيمان لا يكتمل إلاّ بالانصياع والتسليم القلبي لما يقضي به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فمن شهد الشهادتين وأذعن بهما، ومع ذلك يجد في نفسه حرجاً في قضاء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمره فليس بموَمن، يقول سبحانه: (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْليماً). [٥] فالآية تدل على أنّ الإيمان لا يكتمل بنفس الإذعان واليقين بالتوحيد والرسالة مالم ينضم إليه

296-

٢٩٧- 1-ص :٢٦.
2-المائدة:٤٢.
3-النساء:١٧٦.
4-النساء:٦٤.
5-النساء:٦٥.

298-

٣٠٠- التسليم القلبي، ولذلك ترى أنّأمير المؤمنين علياً (عليه السلام) يصف الإسلام بالنحو التالي، ويقول: «لأنسبنّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم». [١]) وتشير الآية الثانية إلى أنّه سبحانه قادر على أن يهلك المشركين ويأتي بقوم آخرين (خيراً منهم)، من دون أن يكون مغلوباً، قال: (فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنّا لَقادِرُونَ* عَلى أَنْنُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحنُ بِمَسْبُوقينَ) .

٣٠١- فجواب القسم قوله (إِنّا لَقادِرُون) وقوله (وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقين) عطف على جواب القسم، والمراد بالسبق الغلبة، أي وما نحن بمغلوبين ويمكن أن يكون السبق بمعناه والمراد: وما نحن بمسبوقين بفوت عقابنا إياهم فإنّهم لو سبقوا عقابنا لسبقونا.

٣٠٢- والتعبير بالمشارق والمغارب لأجل أنّ للشمس في كل يوم من أيام السنة الشمسية مشرقاً ومغرباً لا تعود إليهما إلى مثل اليوم من السنة القابلة، كما أنّه من المحتمل أن يكون المراد بها مشارق جميع النجوم ومغاربها.

٣٠٣- ومن عجيب الأمر أنّ في الآية على قصرها وجوهاً من الالتفات.

٣٠٤- ففي قوله: (فلا أُقْسِم) التفات من التكلم مع الغير الوارد في قوله: (إِنّا خَلَقْناكُمْ) إلى التكلم وحده، والوجه فيه تأكيد القسم باسناده إلى الله نفسه.

٣٠٥- وفي قوله: (بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِب) التفات من التكلم وحده إلى الغيبة، و الوجه فيه الإشارة إلى صفة من صفاته تعالى هي المبدأ في خلق الناس جيلاً بعد جيل، وهي ربوبيته للمشارق و المغارب، فانّ الشروق بعد الشروق، والغروب بعد الغروب، يلازم مرور الزمان الذي له مدخلية تامّة في تكوّن الإنسان

306-
307- 1- نهج البلاغة: قسم الحكم، الحكمة١٢٥.
308-

309- (39)

٣١٠- جيلاً بعد جيل وسائر الحوادث العرضية المقارنة له.

٣١١- وفي قوله: (إِنّا لَقادِرُون) التفات [١] من الغيبة إلى التكلم مع الغير، والوجه فيه الإشارة إلى العظمة المناسبة لذكر القدرة، وفي ذكر ربوبيته للمشارق والمغارب إشارة إلى تعليل القدرة ،وهو أنّ الذي ينتهي إليه تدبير الحوادث في تكوّنها لا يعجزه شيء من الحوادث التي هي أفعاله، عن شيء منها، ولا يمنعه شيء من خلقه من أن يبدله بخير منه، وإلاّ شاركه المانع في أمر التدبير، والله سبحانه لا شريك له في أمر التدبير. [٢]

٣١٢- وأمّا الآية الثالثة: فلما ذكر سبحانه الوعد والوعيد والبعث والنشور أردفه بقول منكر البعث ورد عليهم بأوضح بيان وأجلى برهان، وقال: (أَوَ لا يَذْكُرُ الإِنْسانُأَنّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً) [٣] والمراد أو لا يذكر أنّالنشأة الأُولى دليل على إمكان النشأة الثانية،

ثمّ أكده بقوله: «فوربك» يا محمد «لنحشرنّهم والشياطين» أي لنجمعنهم ولنبعثنهم من قبورهم مقرنين بأوليائهم من الشياطين.

٣١٣- وأمّا الآية الرابعة: فسياق الآية يندد بالمقتسمين، ويقول: (كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمين) [٤] ثمّ يصفهم بقوله :(الّذِينَ جَعَلُوا الْقُرآنَ عِضِين) [٥] والعضين

٣١٤-

٣١٥- 1-الالتفات في علم البيان عبارة عن الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطابإلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم كما في قوله سبحانه: (مالِكِ يَوم الدِّين*إيّاكَ نَعْبُد) وقوله سبحانه: (حَتّى إذا كُنْتُمْ في الفلك و جرين بهم) وقوله سبحانه: (وَاللّهُ الذي أَرسل الرياح فتثير سَحاباً فَسُقْناهُ) ففي الآية الأُولى عدول من الغيبة إلى الخطاب، وفي الثانية من الخطاب إلى الغيبة، وفي الثالثة من الغيبة إلى التكلم.

2-الميزان: ٢٠|٢٢.

3-مريم:٦٧.

4-الحجر:٩١.

5-الحجر:٩٠.

٣١٨- جمع عضّة والتعضية التفريق، فهم الذين جزّأوا القرآن أجزاء فقالوا تارة: سحر، وأُخرى: أساطير الأوّلين، وثالثة: مفترى، وبذلك صدّوا الناس عن الدخول في دين اللّه، وعلى ذلك يكون المراد من المقتسمين هم كفار قريش.

٣١٩- ويحتمل أن يكون المراد هم اليهود والنصارى الذين فرّقوا القرآن أجزاء وأبعاضاً، وقالوا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض.

٣٢٠- وعلى أيّة حال الذين كانوا بصدد إطفاء نور القرآن بتبعيضه أبعاض ليصدوا عن سبيل اللّه فهؤلاء هم المقصودون، ثمّ حلف سبحانه وقال: (فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعينَ* عَمّا كانُوا يَعْمَلُون) من تبعيض القرآن و صد الناس عن الإيمان به.

٣٢١- وأمّا الآية الخامسة: فتذكر إنكار المشركين لإتيان الساعة ويوم القيامة، وهم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه سبحانه وعلمه بكلّ شيء.

٣٢٢- وقد كان سبب إنكارهم هو زعمهم أنّ الإنسان يبلى جسده بعد الموت وتختلط أجزاؤه بأجزاء أبدان أُخرى على نحو لا تتميز، فكيف يمكن إعادته؟ فأجاب سبحانه في الآية مشيراً إلى علمه الواسع، ويقول: (وَقالَالَّذينَ كَفَرُوا لا تَأْتينَا الساعَةُ قُلْ بَلى وَرَبّي لتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الغَيْبِ لا يَعزبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ في السَّماواتِ وَلا فِي الأَرْضِ ولا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إلاّ في كِتابِمُبين) . [١]

٣٢٣- فقوله: (لا تَأْتينَا السّاعَة) حكاية لقول المشركين.

٣٢٤- وقوله: (قل بلى وربّي) أمر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يجيبهم بأنّ إتيان الساعة أمر قطعي.

١ ـ سبأ:٣.

326-

327-

328- (41)

٣٢٩ـ وأمّا ما تشكّكون به من اختلاط أجزاء الأموات بعضها ببعض فهو أمر سهل أمام سعة علمه سبحانه بالغيب، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فهو يعلم بذرات بدن كلّإنسان ويميّزه عن غيره، ومع علمه سبحانه فالأجزاء ثابتة في كتاب مبين لا تتغير ولا تتبدل.

٣٣٠ـ وأمّا الآية السادسة: يقول سبحانه: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْلَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبّي لَتُبعَثُنّ ثُمْ لتُنَبَوَنّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلى اللّهِ يَسير). [١]

٣٣١ـ تشير الآية إلى إنكار الوثنيين الذين كانوا ينكرون البعث، فأمر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بالإجابة على إنكارهم بإثبات ما نفوه من الكلام مقروناً بأصناف التأكيد بالقسم واللام والنون وقال: (وَرَبّي لَتُبعَثُنّ ثُمْ لتُنَبَوَنّ) .

وأشار في ذيل الآية إلى أنّ البعث أمر يسير عليه تعالى ، وانّما طرحوه من شبهات حول البعث فهي ـ في الواقع ـ شبهات لا تصمد أمام قدرة اللّه وعلمه الواسع.

٣٣٢ـ وأمّا الآية السابعة: أعني قوله سبحانه: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إي وَرَبّي إنّهُ لحقّ وما أَنْتُمْ بِمُعْجِزين) . [٢]

٣٣٣ـ سياق الآية يوحي إلى أنّالمشركين كانوا يستخبرون النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عن نزول العذاب أو وقوع البعث، فأمره سبحانه بأن يجيب موَكداً، فقال: (قل إي وربّي انّه لحقّ) وقد أكد الكلام بالقسم والجملة الاسمية، و«انّ» المشبهة و «اللام،» ثم أشار إلى أنّالكافرين لا يعجزونه سبحانه عمّا أراد، وقال: (وَما أَنْتُمْ بِمُعجِزين)، وفي سورة المعارج قال مكانه:(وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقين) .

334-

٣٣٥ـ ١ ـ التغابن:٧.
٢ ـ يونس:٥٣.

336-

337- (42)

٣٣٨ـ وأمّا الآية الثامنة : (فَوَرَبِّ السَّماءِ وَالأَرْضِ انّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنّكُمْ تَنْطِقُون) . [١]

٣٣٩ـ فالضمير في قوله : «إنّه» يعود إلى الرزق والوعد الواردين في الآية المتقدّمة ، قال سبحانه: (وَفِي السَّماءِ رِزْقكُمْ وَما تُوعَدُون) والمراد من الوعد هو الجنة.

٣٤٠ـ ثمّأشار (انّه لحقّمثل ما أنّكم تنطِقُون) وكما أنّ العلم بهذا الأمر ـ أي النطق ـ أمر ملموس لا شبهة فيه، فهكذا الرزق والوعد من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس.

٣٤١- حكى الزمخشري عن الأصمعي قال: أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له، فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: اتل عليّفتلوت «والذاريات» فلمّا بلغت قوله: (وَفِي السَّماءِرِزْقُكُمْ) قال: «حسبك» ، فقام إلى ناقته، فنحرها ووزّعها على من أقبل وأدبر وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولّى، فلما حججت مع الرشيد ، طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق، فالتفتّ فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفرّفسلّم عليَّ و استقرأ السورة، فلمّا بلغت الآية، صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً، ثمّ قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: (فوربّ السّماء والأرض انّه لحقّ) فصاح، وقال: يا سبحان اللّه من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجوَه إلى اليمين، قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفسه. (٢)

٣٤٢- إلى هنا تمّ تفسير الآيات التي أقسم فيها سبحانه بربوبيّته، وإليك الكلام في المقسم به، والمقسم عليه.

343-

٣٤٤- ١- الذاريات:٢٣.
٢- الكشاف:٣|١٦٩.

345-

346- (43)

٣٤٧- المقسم به

٣٤٨- إنّ المقسم به في هذه الآيات الثمان هو الرب، والربّ أصله من ربب، يقول صاحب القاموس: ربّ كلّشيء مالكه ومستحقه وصاحبه،يقال: ربّالأمر أصلحه.

٣٤٩- يقول ابن فارس: الرب، المالك، الخالق، الصاحب، و الرب المصلح للشيء، يقال: ربّ فلان ضيعته، إذا قام على إصلاحها.

٣٥٠- والربّ المصلح للشيء، واللّه جلّثناوَه، الرب لأنّه مصلح أحوال خلقه، والراب الذي يقوم على أمر الربيب.

٣٥١- هذه الكلمات ونظائرها مبثوثة في كتب القواميس واللغة، وهي ظاهرة في أنّ للرب معاني مختلفة، حتى أنّالكاتب المودودي تصوّر أنّ لهذه اللفظة خمسة معان، وذكر لكلّ معنى من المعاني الخمسة شواهد من القرآن، ولكن الحقّ أنّه ليس لتلك اللفظة إلاّ معنى واحد والجميع مصاديق متعددة لهذا المعنى أو صور مبسطة للمعنى الواحد، وإليك هذه الموارد والمصاديق:

٣٥٢- ١. التربية: مثل رب الولد، رباه.

٣٥٣- ٢. الإصلاح والرعاية: مثل رب الضيعة.

٣٥٤- ٣. الحكومة والسياسة: مثل فلان قد ربّ قومه، أي ساسهم وجعلهم ينقادون له.

٤. المالك: كما جاء في الخبر، عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أرب غنم أم رب إبل.

٥. الصاحب: مثل قوله: رب الدار، أو كما يقول القرآن الكريم: (فَلْيَعْبُدُوا رَبّهَذا الْبَيْت) . [١]

1- قريش:٣.

لا ريب انّهذه اللفظة قد استعملت في هذه الموارد، ولكن جميعها ترجع إلى أصل واحد وهو من فوض إليه أمر الشيء المربوب، فلو قيل لصاحب الدار ومالكها ربّ الدار، فلأنّ أمرها مفوض إليه، ولو أطلق على المصلح و السائس، فلأنّ بيد هوَلاء أمر التدبير والإدارة والتصرف، فلو قال يوسف في حقّ عزيز مصر: (إنَّهُ رَبِّي أَحسَنَ مَثْواي) [١]، فلأجل ان يوسف نشأ في إحضانه وقام بشوَونه.

ولو وصف القرآن اليهود والنصارى بأنّهم اتخذوا أحبارهم أرباباً، وقال: (اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْأَرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ) [٢]، فلأجل انّهم تسلّموا زمام سلطة التشريع وتصرّفوا في الأموال والأعراض كيفما شاءُوا.

إنّه سبحان وصف نفسه، بقوله: (ربُّ السَّماواتِ والأَرْض) [٣] وقال أيضاً: (رَبّالشعرى) [٤]كلّ ذلك لانّه تعالى مدبرها ومديرها ومصلح شوَونها والقائم عليها.

وهذا البيان يكشف النقاب عن المعنى الحقيقي للرب، وهو المعنى الجامع بين هذه الموارد. أعني: من فوّض إليه أمر الشيء من حيث الخلق و التدبير والتربية، وبذلك يعلم ما في كلام ابن فارس من تفسيره بالخالق، فانّه خلط بين المعنى ولازمه فالخالق ليس من معاني الرب.

نعم خالق كلّ شيء يعدّ مربياً ومدبراً.

وثمة نكتة جديرة بالاهتمام، وهي: أنّ الوهابيين قسّموا التوحيد إلى

1- يوسف:٢٣.
2- التوبة:٣١.
3- الرعد:١٦.
4- النجم:٤٩.

التوحيد في الربوبية والتوحيد في الالوهية، وفسَّروا الأوّل بالتوحيد في الخالقية ، بمعنى الاعتقاد بأنّ للكون خالقاً واحداً ؛ و فسروا الثاني بالتوحيد في العبادة ، بمعنى أنّه ليس في الكون إلاّ معبود واحد؛ ولكنّهم اخطأوا في كلا الاصطلاحين.

٣٧٢- أمّا الأوّل: فلأنّ التوحيد في الربوبية غير التوحيد في الخالقية، فانّ الخالقية شيء والتدبير والإصلاح شيء آخر، والله سبحانه وإن كان خالقاً ومدبراً لكنّه لا يكون دليلاً على وحدة المفهومين في الخارج.

٣٧٣- فالعرب في عصر الجاهلية كانوا موحدين في الخالقية، وكان منطق الجميع، ما حكاه سبحانه بقوله:(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ ليقُولُنَّ خَلَقَهُنَّالْعَزِيزُ العَلِيم) .[١]

٣٧٤- وفي الوقت نفسه لم يكونوا موحدين في الربوبية، يقول سبحانه: (وَاتَّخذوا مِنْ دُونِ اللّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً) [٢] فكانوا يعتقدون بأنّ العزّة والتدبير من شوَون المدبر، قال سبحانه: (واتَّخذوا مِنْ دُونِ اللّه آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُون)[٣]. فكانوا يرون أنّ النصر بيد الإلهة، خلافاً للموحد في أمر التدبير، فهو يرى أنّ العزّة والنصر بيد الله سبحانه: قال تعالى: (فَلِلّهِ العِزَّةُ جَميعاً) [٤]وقال تعالى: (وَمَا النَّصْرُ إلاّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ الْعَزيز الْحَكيم) [٥] إلى غير ذلك من الآيات الحاكية عن توغّلهم في الشرك في أمر التدبير.

375-

٣٧٦- ١- الزخرف:٩.
٢- مريم:٨١.
٣- يس:٧٤.
٤- فاطر:١٠.
٥- آل عمران:١٢٦.

377-

٣٧٩- وأمّا الثاني: فلأنّ التوحيد في الالوهية غير العبادة، فهو مبني على أنّ الإله بمعنى المعبود، والعبادة من لوازم الإله.

٣٨٠- ولكنّه بعيد عن الصواب، لأنّ ما يتبادر من لفظ الجلالة هو المتبادر من لفظ الإله، غير أنّ الأوّل جزئي موضوع لفرد واحد، والثاني كلي وإن لم يوجد له مصداق آخر.

٣٨١- والذي يدل على أنّ الإله ليس بمعنى المعبود هو أنّه ربما يستعمل لفظ الجلالة مكان الإله على وجه الكلية والوصفيّة دون العلمية، فيصحّ وضع أحدهما مكان الآخر، كما في قوله سبحانه: (وَهُوَ اللّهُ فِي السَّماواتوَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُون) .[١]

٣٨٢- فإنّ وزان هذه الآية وزان، قوله سبحانه:

٣٨٣- (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِإلهٌ وفِي الأَرْضِ إلهٌ وَهُوَ الْحَكيمُ الْعَليم) .[٢]

٣٨٤- (ولا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيراً لَكُمْ إنَّما اللّهُ إلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكونَ لَهُ وَلَد) .[٣]

٣٨٥- (هُوَ اللّهُ الَّذِي لاإِلهَ إِلاّ هُوَ الْمَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ الْمُوَْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الجَبّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللّهِ عَمّا يُشْرِكُونَ* هُوَ اللّهُ الْخالِقُ البارِىَُ الْمُصَوّرُ لَهُ الأَسماءُالْحُسْنى يُسَبِّحُلَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالأَرضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكيم) .[٤]

٣٨٦- ولا يخفى أنّ لفظ الجلالة في هذه الموارد وما يشابهها يراد منه ما يرادف

387-

٣٨٨- 1-الأنعام:٣.
2-الزخرف:٨٤.
3-النساء:١٧١.
4-الحشر:٢٣- ٢٤.

389-

٣٩١- الإله على وجه الكلية (أي ما معناه أنّه هو الإله الذي يتصف بكذا وكذا).

٣٩٢- ويقرب من الآية الأُولى، قوله سبحانه:

٣٩٣- (قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيّاً ما تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْماءُالْحُسْنى) .[١]

٣٩٤- فإنّ جعل لفظ الجلالة في عداد سائر الأسماء، والأمر بدعوة أيٍّ منها، ربما يشعر بخلوّه عن معنى العلمية، وتضمنه معنى الوصفية الموجودة في لفظ :«الإله» وغيره، ومثله قوله سبحانه:

٣٩٥- (هُوَ اللّهُ الْخالِقُ البارِىَُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنى) .[٢]

٣٩٦- فلا يبعد في هاتين الآيتين أن يكون لفظ الجلالة ملحوظاً على وجه الكلية لا العلمية الجزئية، كما هو الظاهر لمن أمعن فيها.

٣٩٧- المقسم عليه

٣٩٨- إنّ المقسم عليه عبارة عن جواب القسم، وهو في تلك الآيات كالتالي:

٣٩٩- أ: الدعوة إلى تحكيم النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والتسليم أمام قضائه.(لا يُوَْمِنُونَحَتّى يُحكّموك...).

٤٠٠- ب: التأكيد على قدرته سبحانه على أن يأتي بخير منهم:(انّا لَقادِرُون عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً...) .

٤٠١- ج: التأكيد على حشرهم وحشر الشياطين: (لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطين) .

٤٠٢- د: التأكيد على أنّهم مسوَولون يوم القيامة عن أعمالهم(لنسئَلنّهم)

403-
404- 1- الإسراء:١١٠.
2- الحشر: ٢٤.
405-

٤٠٧- أَجْمَعين...) .

٤٠٨- هـ: التأكيد على إتيان الساعة: (لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالم الغَيب...) .

٤٠٩- و: التأكيد على بعثهم وآبائهم: (لتبعثن ثمّ لتنبوَنّ...) .

٤١٠- ز: التأكيد على وقوع البعث: (انّه لحقّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزين...) .

٤١١- ح: التأكيد على أنّ أمر الرزق وما توعدون من الجزاء حقّ: (انّه لحقّمثلَ ما أَنْتُمْ تَنْطِقُون...) .

٤١٢- الصلة بين المقسم به والمقسم عليه

٤١٣- الصلة بينهما واضحة ،فانّ المقسم عليه في هذه الآيات، كان يدور حول أحد أمرين:

٤١٤- أ: الدعوة إلى التحكيم إلى النبي والتسليم أمام قضائه.

٤١٥- ب: كون البعث والحشر والسوَال عن الأعمال، أمراً حقّاً.

٤١٦- ومن الواضح أنّ كلا الأمرين من شوَون الربوبية، فإنّ الربّ إذا كان سائساً ومدبراً فهو أعلم بصلاح المدبر فيجب أن يكون مسلماً لأمر النبيّ «صلى الله عليه وآله وسلم» ونهيه.

٤١٧- كما أنّحياة المربوب من شوَون الرب دون فرق بين آجله وعاجله، فناسب الحلف بالرب عند الدعوة إلى الحشر و النشر .

٤١٨- وبعبارة أُخرى: كان المشركون ينكرون التسليم أمام أمره ونهيه، كما كانوا ينكرون البعث والنشر، ولما كان الجميع من شوَون الربوبية حلف بالرب تأكيداً لربوبيته.

٤١٩- * * *

٤٢٢- ثمّإنّ المقسم به فيما مضى من الآيات هو لفظ الجلالة أو لفظ الرب، المشيرين إلى الواجب الجامع لجميع صفات الكمال والجمال.

٤٢٣- وثمة آيات ربما يستظهر منها أنّالمقسم به هو سبحانه تبارك وتعالى لكن بلفظ مبهم كـ«ما» الموصولة، وقد جاء في آيات أربع:

٤٢٤- ١. (وَالسَّماءِ وَما بَناها) .

٤٢٥- ٢. (وَالأَرْضِ وما طَحيها) .

٤٢٦- ٣. (وَنَفْسٍ وَما سَوّاها).[١]

٤٢٧- ٤. (وما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثى).[٢]

٤٢٨- وقد اختلفت كلمة المفسرين في تفسير لفظة «ما»، فالأكثرون على أنّها «ما» موصولة كناية عن اللّه سبحانه،وكأنّه سبحانه يقول: والسماء والذي بناها، والأرض والذي طحاها،ونفس والذي سواها، والواو للقسم.

٤٢٩- وهناك من يذهب إلى أنّها «ما» مصدرية، وكأنّه يقول: أُقسم بالسماء وبنائها، والأرض وطحائها،والنفس وتسويتها.

٤٣٠- ولكن الرأي الأوّل هو الأقرب لأنّ سياق الآية يؤيد ذلك، لأنّه سبحانه يقول: (فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها) [٣] فالفاعل هو الضمير المستتر الراجع إلى «ما» الموصولة الواردة في الآيات الثلاث المتقدمة.والذي يصلح للفاعلية هو الموصول من «ما» لا المصدر، وسيوافيك تفصيل ذلك عند البحث عن الحلف بما ورد في هذه الآيات.

431-

٤٣٢- ١ـ الشمس:٥ـ٧.
٢ـ الليل:٣.
٣ـ الشمس:٨.

433- (50)

٤٣٤- الفصل الثالث

٤٣٥- القسم بالنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)

٤٣٦- حلف القرآن الكريم بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مرّتين، فتارة بعمره وحياته، وأُخرى بوصفه وكونه شاهداً، ويقع البحث في مقامين:

٤٣٧- المقام الأوّل: الحلف بعمر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)

٤٣٨- حلف سبحانه بحياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مرّة واحدة، وقال حينما عرض قصة لوط: (قالَ هوَلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلين*لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُون* فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِين) . [١]

٤٣٩- تفسير الآيات

٤٤٠- أخبر سبحانه في هذه السورة أنّ الملائكة لمّا خرجوا من عند إبراهيم أتوا لوطاً يبشرونه بهلاك قومه، ولمّا حلّوا ضيوفاً عند لوط فرح الفجّار بورودهم، فقال لهم لوط مشيراً إلى بناته(انّ هوَلاء بناتي) «فتزوجوهنّ إن كنتم فاعلين وكانت لكم رغبة في التزويج، ولكن قوم لوط أعرضوا عمّا اقترح عليهم نبيّهم لوط وكانوا مصرّين على الفجور بهم، غافلين عن أنّ العذاب سيصيبهم والله سبحانه يحلف بحياة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ويقول:(لعمرك انَّهُمْ لَفي

441-

٤٤٢- ١ـ الحجر:٧١ـ ٧٣.

443-

444- (51)

٤٤٥- سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُون) فلا يبصرون طريق الرشد(فَأَخذتهُم الصَّيحة) أي الصوت الهائل (مشرقين) أي في حال شروق الشمس.

٤٤٦- المقسم به

٤٤٧- المقسم به هو عبارة عن العمر، أعني في قوله: «لعمرك» يقول الراغب: العَمر والعُمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، فإذا قيل طال عمره فمعناه عمارة بدنه بروحه، إلى أن

قال: والعَمر والعُمر واحد لكن خصَّ القسم بالعَمر دون العُمر، كقوله سبحانه: (لَعَمْرُكَ انَّهُمْ لَفي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُون) .

٤٤٨- وأما العُمُر فكما في قوله سبحانه :(فطالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُر) ، وفي آية أُخرى:(لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنين) .

٤٤٩- فاللفظان بمعنى واحد لكن يختص القسم بواحد منهما. [١]

٤٥٠- المقسم عليه

٤٥١- هو قوله :(انَّهُمْ لَفي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُون) ، والمراد أقسم بحياتك وبقائك يا محمد، انّهم لفي سكرتهم وانغمارهم في الفحشاء والمنكر متحيرين لا يبصرون طريق الرشد.

٤٥٢- وأمّا الصلة بين المقسم به والمقسم عليه.

٤٥٣- قال ابن عباس: ما خلق اللّه عزّوجلّ وماذرأ ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمد، وما سمعت اللّه أقسم بحياة أحد إلاّ بحياته فقال لعمرك. [٢]

454-

٤٥٥- ١ـ المفردات: ٣٤٧، مادة عمَر.
٢ـ مجمع البيان: ٣|٣٤٢.

456-

457- (52)

٤٥٨- وجه الصلة أنّه سبحانه بعث الأنبياء عامة، والنبي الخاتم خاصة لهداية الناس وإنقاذهم من الضلالة وإيقاظهم من السكرة التي تعمُّ الناس، وبما أنّ القوم كانوا في سكرتهم يعمهون وفي ضلالتهم مستمرون، حلف سبحانه تبارك وتعالى بعمر النبي الذي هو مصباح الهداية والدليل إلى الصراط المستقيم.

٤٥٩- المقام الثاني: الحلف بوصف النبي وأنّه شاهد

٤٦٠- حلف القرآن الكريم في سورة البروج بالشاهد والمشهود، وقال: (وَالسَّماءِ ذاتِالْبُروج* وَالْيَومِ المَوعُودِ* وشاهدٍ وَمَشْهُودٍ* قُتِلَ أَصحابُ الأُخدُود) . [١]

٤٦١- أمّا المشهود فسيوافيك في فصل القسم في سورة القيامة انّ المراد منه يوم القيامة بشهادة، قوله سبحانه: (ذلِكَ يَومٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاس وَذلِكَ يَومٌ مَشْهُود) [٢]

٤٦٢- إنّما الكلام في الشاهد، فالمراد منه هو النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) بشهادة أنّه سبحانه وصفه بهذا الوصف ثلاث مرّات، وقال:

٤٦٣- (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) . [٣]

٤٦٤- (انّاأَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ) . [٤]

٤٦٥- (إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) . [٥]

٤٦٦- والآيات صريحة في حقّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وفي بعض

467-

٤٦٨- ١- البروج:١-٤.
٢- هود:١٠٣.
٣- الأحزاب:٤٥.
٤- المزمل:١٥.
٥- الفتح:٨.

469-

470- (53)

٤٧١- الآيات عرّفه بأنّه (شهيداً)، ويقول:(وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلى النّاسِ وَيَكونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) .[١]

٤٧٢- (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤلاء) .[٢]

٤٧٣- هذه الآيات تعرب عن أنّ المقسم به هو النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بما انّه شاهد على أعمال أُمّته وشهيداً عليها.

٤٧٤- سئل الحسن بن علي (عليهما السلام) عن معنى الشاهد والمشهود في قوله سبحانه: (وشاهِدٍ وَمَشْهُود)؟ فقال: أمّا الشاهد فمحمد «صلى الله عليه وآله وسلم»، وأمّا المشهود فيوم القيامة، أما سمعته يقول: (إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذيراً) ، وقال تعالى: (ذلِكَ يَومٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاس وَذلِكَ يَومٌ مَشْهُود) .[٣]

٤٧٥- معنى الشهادة وكيفية شهادة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

٤٧٦- أمّا الشهادة فقد فسرها الراغب وقال: الشهود والشهادة، الحضور مع المشاهدة امّا بالبصر أو بالبصيرة، وقد يقال للحضور مفرداً عالم«الغيب والشهادة» وقد نقل القرآن شهادة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على قومه يوم القيامة، فقال:(يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرآنَ مَهْجُوراً) .[٤]

٤٧٧- هذه حقيقة قرآنية في حقّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وغيره ولا

478-

٤٧٩- ١- البقرة:١٤٣.
٢- النحل:٨٩.
٣- البحار:١|١٣.
٤- الفرقان:٣٠.

480-

481- (54)

٤٨٢- يمكن إنكارها للتصريح بها في غير واحد من الآيات، قال تعالى: (فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ على هؤُلاءِ شَهِيداً) .[١] وقال تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُون)[٢]

٤٨٣- وقال عزّ اسمه: (وَوُضِعَ الْكِتابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداء) .[٣] والشهادة فيها مطلقة، وظاهر الجميع ـ على إطلاقها- هو الشهادة على اعمال الأُمم، وعلى تبليغ الرسل كما يومئ إليه، قوله تعالى: (فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرسَلين) .[٤]

٤٨٤- وظرف الشهادة وإن كان هو الآخرة لكن الشهداء يتحملوها في الدنيا. قال سبحانه: (وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد).[٥]

٤٨٥- وعلى ضوء ذلك يثار هذا السوَال في الذهن،وهو:

٤٨٦- إنّ الشهادة من الحضور ولم يكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ظاهراً مع جميع الأُمة بل كان بمعزل عنهم إلاّ شيئاً لا يذكر، فكيف يشهد وهولم يحضر الواقعة أي أفعال أُمّته قاطبة؟

٤٨٧- وهناك إشكال آخر أكثر غموضاً وهو: انّ الشهادة على ظاهر الأعمال ليست مفيدة يوم القيامة،بل الشهادة على باطن الأعمال من كون الصلاة للّه أو للرياء

488-
489-
١ـ النساء:٤١.
٢ـ النحل:٨٤.
٣ـ الزمر:٦٩.
٤ـ الأعراف:٦.
٥ـ المائدة:١١٧.

490-

٤٩٢- وللسمعة، وانّ إيمانه هل كان إيماناً نابعاً من صميم ذاته، أو نفاقاً لأجل حطام الدنيا، فهذا النوع من الأعمال لا يمكن الشهادة عليها حتى بنفس الحضور عند المشهود عليه؟

٤٩٣- وهذا يدفعنا إلى القول بأنّ لشهداء الأعمال عامة والنبي الخاتم خاصة قدرة غيبية خارقة يطّلع من خلالها على أعمال العباد ظاهرها وباطنها وذلك بقدرة من اللّه سبحانه، وعلى ذلك فهذه الشهادة عبارة عن الاطلاع على أعمال الناس في الدنيا من سعادة أو شقاء،وانقياد وتمرّد، وإيمان وكفر، وأداء ذلك في الآخرة يوم يستشهد اللّه من كلّ شيء حتى من أعضاء الإنسان، وعند ذلك يقوم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ويقول: (يا رَبِّ إِنَّ قَوْمي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرآن مَهْجُوراً) .

٤٩٤- فإذا كانت الشهادة بهذا المعنى فلا ينالها إلاّ الأمثل فالأمثل من الأُمّة، لا الأُمة بأسرها،وعلى ضوء ذلك فيكون المراد من قوله سبحانه:(وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَعَلَى النّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهيداً)[١] هم الكاملين من الأُمّة لا المتوسطين وما دونهم.

٤٩٥- وأمّا نسبة الشهادة إلى قاطبة أُمّة النبي، في قوله تعالى:(وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسطاً) فليس بشيء بديع، إذ ربّما يكون الوصف لبعض الأُمّة وينسب الحكم إلى جميعهم، كما في قوله سبحانه في حقّ بني إسرائيل:(وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً) على الرغم من أنّ الملوك فيهم لم يكن يتجاوز عددهم عدد الأصابع.

٤٩٦- وثمة حديث منقول عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: (لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلى النّاسِ وَيَكونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهيداً) يؤيد هذا

497-
498- ١ـ البقرة:١٤٣.

499-

500- (56)

٥٠١- المعنى«الشهادة للأمثل» :«فإن ظننت أنّ‌اللّه عني بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين، أفترى انّمن لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب اللّه شهادته يوم القيامة، ويقبلها منه بحضرة جميع الأُمم الماضية؟ كلا: لم يعن اللّه مثل هذا من خلقه، يعني الأُمّة التي وجبت لها دعوة إبراهيم (كنتم خير أُمّة أُخرجت للناس) وهم الأُمّة الوسطى، وهم خير أُمّة أُخرجت للنّاس». [١]

٥٠٢- الحلف بالنبي كناية

٥٠٣- ربّما يحلف القرآن الكريم بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كناية، قال سبحانه: (لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَد *وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَد * وَوالِدٍ وَما وَلَد * لَقَدْخَلَقْنَا الإِنْسانَ في كَبَد) . [٢]

٥٠٤- والحِلُّ بمعنى المقيم وكأنّه سبحانه يقول: وأنت يا محمد مقيم به، وهو محلك وهذا تنبيه على شرف البلد بشرف من حلّبه وهو الرسول الداعي إلى توحيده، وإخلاص عبادته، وبيان أنّ تعظيمه له وقسمه به لأجله ولكونه حالاً فيه، كما سميت المدينة طيبة لأنّها طابت به حيّاً وميتاً. [٣]

٥٠٥- وكأنّ الآية تشير إلى المثل المعروف شرف المكان بالمكين، وانّقداسة مكة والداعي إلى الحلف بها هو احتضانها للنبييقول العلاّمة الطباطبائي: والحل مصدر كالحلول بمعنى الإفاضة والاستقرار في مكان، والمصدر بمعنى الفاعل، والمعنى: أقسم بهذا البلد، والحال انّك حال به مقيم فيه، وفي ذلك تنبيه على تشرّف مكة بحلوله فيها وكونها مولده ومقامه. [٤]

506-

٥٠٧- ١ـ الميزان:١|٣٣٢.
٢ـ البلد:١ـ٤.
٣ـ مجمع البيان:١٠|٤٩٢.
٤ـ الميزان: ٢٠|٢٨٩.

508- (57)

٥٠٩- الفصل الرابع

٥١٠- القسم بالقرآن الكريم

٥١١- القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الذي أنزله سبحانه على رسوله ليكون للعالمين نذيراً، وبما أنّ القرآن كتاب هداية للناس، فقد نال من الكرامة بمكان حلف به سبحانه فتارة بلفظ «القرآن »وأُخرى بلفظ «الكتاب».

٥١٢- فقد حلف بالقرآن في ثلاث آيات:

٥١٣- (يس * وَالقُرآنِ الحَكيم * إنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * على صراطٍ مُسْتَقيم) .[١]

(ص وَالقُرآنِ ذي الذِّكْر * بَلِ الَّذينَ كَفَرُوا في عِزَّة وَشِقاق * كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوا وَلاتَ حينَمَناص * وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَالكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذّاب * أَجَعلَ الآلِهَةَ إلهاً واحِداً إنّ هذا لشيءٌ عُجاب).[٢]

٥١٤- (ق وَالقُرآنِ المَجيد * بَلْ عَجِبُوا أنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الكافِرُونَ هذا شَيءٌ عَجيب) .[٣]

515-
516- 1- يس:١-٤.
2- ص:١-٥.
3- ق:١-٢.
517-

518- (58)

٥١٩- كما حلف سبحانه بلفظ الكتاب مرّتين،وقال:

٥٢٠- (حم * وَالكِتاب الْمُبين *إنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكةٍ إنّا كُنّا مُنْذِرينَ * فِيها يُفرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكيم *أَمراً مِنْ عِنْدِنا إنّا كُنّا مُرسِلين).[١]

٥٢١- (حم * وَالْكِتابِ الْمُبِينِ * إنّا جَعَلْناهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *وَإنَّهُ في أُمِّ الكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكيمٌ) .[٢]

٥٢٢- وقبل الخوض في تفسير الآيات نذكر أُموراً:

٥٢٣- الأوّل: انّه سبحانه صدّر هذه الأقسام بالحروف المقطعة كما هو واضح، وهذا يؤيد أنّ كلمة يس من الحروف المقطعة، والحروف المقطعة عبارة عن الحروف التي صدّر بها قسم من السور يجمعها قولنا:«صراط علي حق نمسكه» وعند التحليل يرجع إلى:

٥٢٤- ا، ح، ر، س، ص، ط ، ع ، ق، ك ، ل، م ، ن ،هـ ، ي.

٥٢٥- والعجب أنّهذه الحروف هي نصف الحروف الهجائية.

٥٢٦- الثاني: ما هو المراد من الحروف المقطعة؟

٥٢٧- افتتح القرآن الكريم قسماً من السور بحروف مقطعة أعني السور التالية:

٥٢٨- ١. البقرة، ٢. آل عمران، ٣. الأعراف، ٤. يونس، ٥. هود، ٦. يوسف، ٧. الرعد، ٨. إبراهيم، ٩. الحجر، ١٠. مريم، ١١. طه، ١٢. الشعراء، ١٣. النمل، ١٤.

529-

530- 1- الدخان:١ـ٥.
2- الزخرف:١ـ٤.
531-

532- (59)

٥٣٣- القصص، ١٥. العنكبوت، ١٦. الروم، ١٧.لقمان، ١٨. السجدة، ١٩. يس، ٢٠. ص، ٢١. غافر، ٢٢. فصلت، ٢٣. الشورى، ٢٤. الزخرف، ٢٥. الدخان، ٢٦. الجاثية، ٢٧. الأحقاف، ٢٨. ق، ٢٩. القلم.

٥٣٤- فهذه السور التي يبلغ عددها ٢٩ سورة افتتحت بالحروف المقطعة.

٥٣٥- وقد تطرق المفسرون إلى بيان ما هو المقصود من هذه الحروف. وذكروا وجوهاً كثيرة نقلها فخرالدين الرازي في تفسيره الكبير تربو على عشرين وجهاً. [(١)]

٥٣٦- وها نحن نقدم المختار ثمّ نلمح إلى بعض الوجوه.

٥٣٧- إلماع إلى مادة القرآن

٥٣٨- إنّالقرآن الكريم تحدّى المشركين بفصاحته وبلاغته وعذوبة كلماته ورصانة تعبيره، وادعى أنّهذا الكتاب ليس من صنع البشر بل من صنع قدرة إلهية فائقة لا تبلغ إليها قدرة أيِّ إنسان ولو بلغ في مضمار البلاغة والفصاحة ما بلغ.

٥٣٩- ثمّ إنّه أخذ يورد في أوائل السور قسماً من الحروف الهجائية للاِلماع إلى أنّ هذا الكتاب موَلف من هذه الحروف، وهذه الحروف هي التي تلهجون بها صباحاً ومساءً فلو كنتم تزعمون أنّه من صُنْعي فاصنعوا مثله، لأنّ المواد التي تركب منها القرآن كلّها تحت أيديكم واستعينوا بفصحائكم وبلغائكم، فإن عجزتم، فاعلموا أنّه كتاب منزل من قبل اللّه سبحانه على عبد من عباده بشيراً ونذيراً.

٥٤٠- وهذا الوجه هو المروي عن أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) ، وهو خيرة جمع من المحقّقين، وإليك ما ورد عن أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) في هذا المقام:

٥٤١- أ: روى الصدوق بسنده عن الإمام العسكري (عليه السلام) ، انّه قال: «كذبت

542-
543- 1- تفسير الفخر الرازي:٢|٥ـ ٨.
544-

545- (60)

٥٤٦- قريش واليهود بالقرآن، وقالوا: هذا سحر مبين، تقوّله، فقال اللّه: (الم * ذلِكَ الكتاب) أي يا محمّد هذا الكتاب الذي أنزلته إليك هو الحروف المقطعة التي منها (الم) وهو بلغتكم وحروف هجائكم، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين، واستعينوا بذلك بسائر شهدائكم، ثمّ بيّن أنّهم لا يقدرون عليه بقوله: (لَئِن اجْتَمَعَتِ الاِنْس وَالجِنّ عَلى أَنْيَأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرآن لا يَأْتُونَ بِمِثْلِه وَلَو كانَبَعضهُمْ لِبَعْضِ ظَهيراً) [(١)]» . [(٢)]

٥٤٧- وبه قال أبو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني(٢٥٤ـ ٣٢٢هـ) من كبار المفسرين، حيث قال: إنّ الذي عندنا أنّه لما كانت حروف المعجم أصل كلام العرب وتحدّاهم بالقرآن

وبسورة من مثله، أراد أنّ هذا القرآن من جنس هذه الحروف المقطعة تعرفونها وتقتدرون على أمثالها، فكان عجزكم عن الإتيان بمثل القرآن وسورة من مثله دليلاً على أنّالمنع والتعجيز لكم من الله على أمثالها، وانّه حجّة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، قال: وممّا يدل على تأويله أنّ كلّسورة افتتحت بالحروف التي أنتم تعرفونها، بعدها إشارة إلى القرآن، يعني أنّه موَلف من هذه الحروف التي أنتم تعرفونها وتقدرون عليها، ثمّسأل نفسه، وقال: إن قيل لو كان المراد هذا لكان قد اقتصر الله تعالى على ذكر الحروف في سورة واحدة؟ فقال: عادة العرب التكرار عند إيثار إفهام الذي يخاطبونه. [٣]

٥٤٨- واختاره الزمخشري(٤٦٧- ٥٣٨هـ) في تفسيره، وقال: واعلم أنّك إذا تأملت ما أورده الله عزّسلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم: ١٤ سواه، وهي: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف

549-
550- 1- الأسراء:٨٨.
2- تفسير البرهان:١|٥٤، تفسير الآية الثالثة من سورة البقرة برقم ٩.
3- تاريخ القرآن للزنجاني: ١٠٦.
551-

٥٥٣- والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم.

٥٥٤- ثمّ إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك أنّ فيها من المهموسة نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء.

٥٥٥- ومن المهجورة نصفها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون.

٥٥٦- ومن الشديدة نصفها: الألف والكاف والطاء والقاف.

٥٥٧- ومن الرخوة نصفها: اللام والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون.

٥٥٨- ومن المطبقة نصفها: الصاد والطاء.

٥٥٩- ومن المنفتحة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون.

٥٦٠- ومن المستعلية نصفها: القاف والصاد والطاء.

٥٦١- ومن المنخفضة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء و الياء والعين والسين والحاء والنون.

٥٦٢- ومن حروف القلقلة نصفها: القاف والطاء.

٥٦٣- ثمّ إذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كلّ شيء حكمته وقد علمت أنّ معظم الشيء وجلّه ينزل منزلة كله وهو المطابق للطائف

564-

565- (62)

٥٦٦- التنزيل.

٥٦٧- فكأنّ الله عزّاسمه عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إيّاهم. (١)

٥٦٨- ومن المتأخرين من بيّن هذا الوجه ببيان رائع ألا وهو المحقّق السيد هبة الدين الشهرستاني (١٣٠١- ١٣٨٦هـ) قال ما هذا نصّه:

٥٦٩- إنّ القرآن مجموعة جمل ليست سوى صبابة أحرف عربية من جنس كلمات العرب ومن يسير اعمال البشر وقد فاقت مع ذلك عبقرية، وكلما كان العمل البشري أيسر صدوراً وأكثر وجوداً، قلّ النبوغ فيه وصعب افتراض الإعجاز والإعجاب منه، فإذا الجمل القرآنية ليست سوى الحروف المتداولة بين البشر، فهي عبارة عن «الم»و «حمعسق» فلماذا صار تأليف جملة أو جمل منه مستحيل الصدور؟ هذا ونجد القرآن يكرر تحدي العرب وغير العرب بإتيان شيء من مقولة هذا السهل الممتنع كالطاهي يفاخر المتطاهي بأنّه يصنع الحلوى اللذيذة من أشياء مبذولة لدى الجميع كالسمن واللوز ودقيق الرز، بينما المتطاهي لا يتمكن من ذلك مع استحضاره الأدوات، وكذلك الكيمياوي الماهر يستحضر المطلوب المستجمع لصفات الكمال، وغيره يعجز عنه مع حضور جميع الأدوات والأجزاء، وكذلك القرآن يقرع ويسمع قومه بأنّ أجزاء هذا المستحضر القرآني موفورة لديكم من ح وم ول و رو ط و ه و أنتم مع ذلك عاجزون. (٢)

٥٧٠- ويوَيد هذا الرأي أنّ أكثر السور التي صدرت بالحروف المقطعة جاء بعدها ذكر القرآن الكريم بتعابير مختلفة، ولم يشذَّ عنها إلاّ سور أربع، هي: مريم

571-
572- 1- الكشاف:١|١٧، ط دار المعرفة.
2- المعجزة الخالدة:١١٥- ١١٦.
573-

574- (63)

٥٧٥- والعنكبوت والروم والقلم، ففي غير هذه السور أردف الحروف المقطعة بذكر الكتاب والقرآن، وإليك نماذج من الآيات:

٥٧٦- (الم * ذلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً لِلْمُتَّقين) . (١)

٥٧٧- (الم...نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَبِالْحَقّ مُصدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوراةَ وَالإِنْجِيل) . (٢)

٥٧٨- (المص * كِتابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ) . (٣)

٥٧٩- (الر تِلْكَ آياتُ الكِتابِ الحَكيم) .[٤]

٥٨٠- إلى غير ذلك من السور ما عدا الأربع التي أشرنا إليها.

٥٨١- ثمّإنّهذا الوجه هو الوجه العاشر في كلام الرازي ونسبه إلى المبرد، وإلى جمع عظيم من المحقّقين وقال:إنّاللّه إنّما ذكرها احتجاجاً على الكفار، وذلك أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لما تحدّاهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، فعجزوا عنه، أنزلت هذه الحروف تنبيهاً على أنّالقرآن ليس إلاّ من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها، وعارفون بقوانين الفصاحة، فكان يجب أن تأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزتم عنه دلّذلك على أنّه من عند اللّه لا من عند البشر.[٥]

٥٨٢- هذا هو الرأي المختار وقد عرفت برهانه.

٥٨٣- وثمة رأي آخر أقل صحة من الأوّل، وحاصله: انّ كلّ واحد منها دال على

584-

585- 1- البقرة: ١-٢.
2- آل عمران: ١-٣.
3- الأعراف: ١-٢.
4- يونس: ١.
5- تفسير الفخر الرازي: ٦|٢.

586-

٥٨٨- اسم من أسماء اللّه تعالى وصفة من صفاته.

٥٨٩- قال ابن عباس في (الم): الألف إشارة إلى أنّه تعالى أحد، أوّل، آخر، أزلي، أبدي، واللام إشارة إلى أنّه لطيف، والميم إشارة إلى انّه ملك ، مجيد، منّان.

٥٩٠- وقال في (كهيعص): إنّه ثناء من اللّه تعالى على نفسه، والكاف يدل على كونه كافياً، والهاء يدل على كونه هادياً، والعين يدل على العالم، والصاد يدل على الصادق.

٥٩١- وذكر ابن جرير عن ابن عباس انّه حمل الكاف على الكبير والكريم، والياء على أنّه يجير، والعين على العزيز و العدل.[١]

٥٩٢- ونقل الزنجاني في تأييد ذلك الوجه ما يلي:

٥٩٣- وفي الحديث: «شعاركم حم لا ينصرون»، قال الأزهري: سئل أبو العباس، عن قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : حم لا ينصرون. فقال: معناه واللّه لا ينصرون.

٥٩٤- وفي لسان العرب في حديث الجهاد: «إذا بُيّتم فقولوا حاميم لا ينصرون» قال ابن الأثير: معناه اللهم لا ينصرون.[٢]

٥٩٥- إذا عرفت هذه الأُمور، فلنرجع إلى تفسير الآيات التي حلف فيها سبحانه بالقرآن والكتاب، وإليك البيان:

٥٩٦- ١. (يس * والْقُرآن الحَكيم * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرسَلين) فالمقسم به هو القرآن، والمقسم عليه قوله: (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرسَلين)، والصلة بين القرآن وبين كونه من المرسلين واضحة، لأنّ القرآن أداة تبليغه ورسالته ومعجزته الخالدة.

597-

598- ١- تفسير الفخر الرازي:٢|٦.

٢- تاريخ القرآن:١٠٥.

599-

600- (٦٥)

٦٠١- وأمّا وصف القرآن بالحكيم، فلأنّه مستقرٌ فيه الحكمة، وهي حقائق المعارف وما يتفرع عليها من الشرائع والعبر و المواعظ. [١]

٦٠٢- ٢.(ص * والقُرآن ذي الذِّكر *بَلِالَّذينَكَفَرُوا في عِزَّة وَشقاق * كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلاتَ حينَ مَناص) .

٦٠٣- وصف القرآن بكونه (ذي الذكر)كما وصفه في الآية السابقة بكونه (حكيماً) ووصفه تارة ثالثة بـ(المجيد)، والمراد بالذكر هو ذكر ما جُبل عليه الإنسان من التوحيد والمعاد.

٦٠٤- قال الطبرسي: فيه ذكر اللّه وتوحيده وأسماوَه الحسنى وصفاته العلى، وذكر الأنبياء، وأخبار الأُمم، وذكر البعث والنشور، وذكر الأحكام وما يحتاج إليه المكلّف من الأحكام ويوَيده قوله: (ما فَرَّطنا في الكتاب من شيء) . [٢]

٦٠٥- قال الطباطبائى في تفسيره: المراد بالذكر ذكر اللّه تعالى وتوحيده وما يتفرّع عليه من المعارف الحقّة من المعاد والنبوة وغيرهما.

٦٠٦- ويوَيد ذلك إضافة الذكر في غير واحد من الآيات إلى لفظ الجلالة، قال سبحانه: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللّه) [٣] وقال: (استَحْوَذَ عَلَيهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكرَ اللّه) [٤] إلى غير ذلك.

٦٠٧- وأمّا المقسم عليه: فمحذوف معلوم من القرينة، هو أنّك لمن المنذرين، ويدل على ذلك التنديد بالذين كفروا وانّهم في عزّة وشقاق، أي في تكبّر عن

608-

609- ١- تفسير الميزان:١٧|٦٢.

٢- مجمع البيان:٨|٤٦٥.

٣- الحديد:١٦.

٤- المجادلة:١٩.

610-

611- (٦٦)

٦١٢- قبول الحق وحمية جاهلية، وشقاق أي عداوة وعصيان ومخالفة، لأنّهم يأنفون عن متابعة النبيويصرّون على مخالفته، ثمّخوّفهم الله سبحانه، فقال: كم أهلكنا من قبلهم من قرن بتكذيبهم الرسل فنادوا عند وقوع الهلاك بهم بالاستغاثة ولات حين مناص.

٦١٣- والصلة بين المقسم به (القُرآن ذي الذِّكر) والمقسم عليه المقدّر «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُنْذَرين» واضحة، لأنّ القرآن من أسباب انذاره وأدوات تحذيره.

٦١٤- ٣.(ق والقُرآنِ المَجِيد * بَلْ عَجبوا انْ جاءَهم مُنْذِر مِنْهُمْفَقالَ الكافِرونَهذا شَيءٌ عَجيب) [١].

٦١٥- المقسم به هوالقرآن ووصفه بالمجيد، قال الراغب: المجد السعة في المقام والجلال، وقد وصف به القرآن الكريم، فلأجل كثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأُخروية، فالمجيد مبالغة في المجد.

٦١٦- وقال الطبرسي: المجيد أي الكريم على الله، العظيم في نفسه، الكثير الخير والنفع. [٢]

٦١٧- والمقسم عليه: محذوف تدل عليه الجمل التالية، والتقدير: والقرآن المجيد انّك لمن المنذرين، أو أنّالبعث حق والإنذار حق.

٦١٨- وقد ركزت السورة على الدعوة إلى المعاد و وبّخت المشركين باستعجالهم على إنكاره ونقد زعمهم.

٦١٩- والصلة بين المقسم به وجواب القسم واضحة، سواء أقلنا بأنّ المقسم عليه إنّك مِنَ المنذرين أو انّالبعث والنشر حقّ، أمّا على الأوّل فلأنّ القرآن أحد أدوات

620-

621- ١- ق:١-٢.

٢- مجمع البيان:٩|١٤١.

622-

623- (٦٧)

٦٢٤- الإنذار ، وأمّا على الثاني فلأنَّ القرآن يتضمن شيئاً كثيراً عن الدعوة إلى المعاد.

٦٢٥- ثمّ إنّ القرآن في الأصل مصدر نحو رجحان، قال سبحانه: (إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرآنهُ * فَإِذا قَرَأْناهُ فاتَّبع قُرآنه) [١] قال ابن عباس: إذا جمعناه وأثبتناه في صدرك فاعمل به.

٦٢٦- وقد خص بالكتاب المنزل على نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فصار له كالعلم،كما أنّ التوراة لما أُنزل على موسى(عليه السلام) ، و الإنجيل لما أُنزل على عيسى (عليه السلام) ، قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إليه بقوله: (وَتَفصيلاً لكلِّ شيء) [٢]

٦٢٧- وعلى هذا فالقرآن من قرأ بمعنى جمع، ولكن يحتمل أن يكون بمعنى القراءة، كما في قوله سبحانه:(وَقُرآنَ الفَجْر) [٣]أي قراءته.

٦٢٨- الحلف بالكتاب

٦٢٩- حلف سبحانه بالكتاب مرتين، وقال:

٦٣٠- ١.(حم * والكتابِ المُبِين *إنّا أَنْزَلْناهُ في لَيْلَةٍ مُبارَكةٍ إنّا كُنّا مُنْذِرين) . [٤]

٦٣١- ٢.(حم * وَالكتابِ المُبِين * إنّا جَعَلْناهُ قُرآناً عَرَبياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون) . [٥]

632-

633- ١- القيامة:١٧-١٨.

٢- الأنعام:١٥٤.

٣- الإسراء:٧٨.

٤- الدخان:١-٣.

٥- الزخرف:١-٣.

634-

635- (٦٨)

٦٣٦- فالمقسم به هو الكتاب، والمقسم عليه في الآية الأُولى قوله: (إنّا أنْزَلْناهُ في لَيْلَة مُباركة)، والصلة بينهما واضحة، حيث يحلف بالكتاب على أنّه منزل من جانبه سبحانه في ليلة مباركة.

٦٣٧- كما أنّالمقسم به في الآية الثانية هو ا لكتاب المبين، والمقسم عليه هو الحلف على أنّه سبحانه جعله قرآناً عربياً للتعقل، والصلة بينهما واضحة.

٦٣٨- ووصف الكتاب بالمبين دون غيره، لأنّ الغاية من نزول الكتاب هو إنذارهم وتعقّلهم كما جاء في الآيتين، حيث قال:(إنّا كُنّا مُنذرين)وقال: (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون) ، وهذا النوع من الغاية أي الإنذار والتعقل يطلب لنفسه أن يكون الكتاب واضحاً مفهوماً لا مجهولاً ومعقداً.

٦٣٩- والكتاب في الأصل مصدر، ثمّ سمّي المكتوب فيه كتاباً.

٦٤٠- إلى هنا تمّ الحلف بالقرآن والكتاب.

٦٤١- بقي هنا الكلام في عظمة المقسم به ويكفي في ذلك أنّه فعله سبحانه حيث أنزله لهداية الناس وإنقاذهم من الضلالة.

٦٤٢- وقد تكلّم غير واحد من المفكرين الغربيين حول عظمة القرآن، والأحرى بنا أن نرجع إلى نفس القرآن ونستنطقه حتى يبدي رأيه في حق نفسه.

٦٤٣- أ: القرآن نور ينير الطريق لطلاب السعادة: قال سبحانه: (قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِين). [١]

٦٤٤- ب: انّه هدى للمتّقين: قال سبحانه: (هُدىً لِلْمُتَّقين) . [٢]

645-

646- ١ـ المائدة:١٥.

٢ـ البقرة:٢.

647-

٦٤٩- فهو وإن كان هدى لعامة الناس، إلاّ أنّه لا يستفيد منه إلاّ المتقون، ولذلك خصّهم بالذكر.

٦٥٠- ج: هو الهادي إلى الشريعة الأقوم: قال سبحانه: (إِنَّ هذا القُرآنَ يَهدِي لِلَّتي هِيَ أَقْوم) .[١]

٦٥١- د: الغاية من إنزاله قيام الناس بالقسط: قال سبحانه: (وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالقِسْطِ) .[٢]

٦٥٢- هـ: لا يتطرق إليه الاختلاف في فصاحته وبلاغته ولا في مضامينه ولا محتواه: قال سبحانه: (وَلَوْ كانَمِنْ عِنْدِ غَيرِ اللّهِ لوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كَثِيراً) .[٣]

٦٥٣- و: يحث الناس إلى التدبر والتفكّر فيه (كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارِكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ) .[٤]

٦٥٤- ز: تبيان لكلّشيء: (وَنَزلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيء) .[٥]

٦٥٥- ح: نذير للعالمين: (تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً) .[٦]

٦٥٦- ط: فيه أحسن القصص: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَص) .[٧]

657-

658- ١ـ الإسراء:٩.

٢ـ الحديد:٢٥.

٣ـ النساء:٨٢.

٤ـ ص:٢٩.

٥ـ النحل:٨٩.

٦ـ الفرقان:١.

٧ـ يوسف:٣.

659-

٦٦١- ي:ضُرب فيه للناس من كلّ مثل: (وَلَقَدْ صَرَّفْنا في هذا الْقُرآنِ لِلنّاسِ من كُلِّ مَثَل).[١]

٦٦٢- هذه نماذج من الآيات التي تصف القرآن ببعض الأوصاف.

٦٦٣- وللنبي والأئمة المعصومين كلمات قيّمة حول التعريف بالقرآن ننقل شذرات منها:

٦٦٤- قام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خطيباً، فقال: «أيّها الناس انّكم في دار هدنة وأنتم على ظهر سفر، والسير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان، كلّ جديد، ويقرّبان كلّ بعيد، ويأتيان بكلّموعود، فأعدوا الجهاز لبعد المجاز».

٦٦٥- فقام المقداد بن الأسود، وقال: يا رسول اللّه و ما دار الهدنة؟ قال:« دار بلاغ وانقطاع.

٦٦٦- فإذا التبست عليكم الفتن كقطع اللّيل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفّع وماحل مصدَّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه، ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره، وليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب، ويتخلص من نشب، فإنّ التفكّر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص وقلة التربص». [٢]

667-

668- ١- الكهف:٥٤.

٢- الكافي: ٢|٥٩٩، كتاب فضل القرآن.

669-

670- (٧١)

٦٧١- وقال الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) في وصف القرآن:

٦٧٢- «ثمّأنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده،وبحراً لا يدرك قعره، فهو ينابيع العلم وبحوره، وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون». [١]

٦٧٣- إلى غير ذلك من الخطب والكلم حول التعريف بالقرآن الواردة عن أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) .

674-

٦٧٥- ١- نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

676- (72)

٦٧٧- الفصل الخامس

٦٧٨- القسم بالعصر

٦٧٩- حلف سبحانه بالعصر مرّة واحدة دون أن يقرنه بمقسم به آخر، وقال: (وَالعَصْرِ * إِنّ الإِنْسانَلَفي خُسْر). [١]

٦٨٠- تفسير الآيات:

٦٨١- العصر يطلق ويراد منه تارة الدهر، وجمعه عصور.

٦٨٢- وأُخرى العشيّ مقابل الغداة، يقال: العصران: الغداة والعشي، والعصران الليل والنهار، كالقمرين للشمس و القمر.

٦٨٣- وثالثة بمعنى الضغط فيكون مصدر عصرت. والمعصور الشيء العصر، والعُصارة نفاية ما يُعصر، قال سبحانه: (أَراني أَعْصِرُخَمراً)[٢]، وقال: (وفيهِ يَعْصِرُون)[٣] ،وقال: (وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً)[٤] أي السُّحُب التي تعتصر بالمطر.

٦٨٤- ورابعة بمعنى ما يثير الغبار، قال سبحانه: (فَأَصابَها إعصار) [٥] [٦]

٦٨٥- والمراد من الآية أحد المعنيين الأوّليين.

686-

687- ١- العصر:١-٢.

٢- يوسف:٣٦.

٣- يوسف:٤٩.

٤- النبأ:١٤.

٥- البقرة:٢٦٦.

٦- مفردات القرآن،مادة عصر و مجمع البيان:٥|٥٣٥.

688-

689- (٧٣)

٦٩٠- الأوّل: الدهر والزمان.

٦٩١- الثاني: العصر مقابل الغداة.

٦٩٢- ولا يناسب المعنى الثالث، أعني: الضغط، ولا الرابع كما هو واضح.

٦٩٣- وإليك بيان المعنيين الأوّلين.

٦٩٤- ١. العصر: الدهر، وإنّما حلف به لأنّ فيه عبرة لذوي الأبصار من جهة مرور الليل والنهار، وقد نسب ذلك ا لقول إلى ابن عباس والكلبي والجبائي.

٦٩٥- قال الزمخشري: وأقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب. [١]

٦٩٦- ولعلّ المراد من الدهر والزمان اللّذين يفسرون بهما العصر هو تاريخ البشرية، وذلك لأنّه سبحانه جعل المقسم عليه كون الإنسان لفي خسر إلاّ طائفة خاصة، ومن المعلوم أنّ خسران الإنسان انّه هو من تصرم عمره ومضي حياته من دون أن ينتفع بأغلى رأس مال وقع في يده، وقد نقل الرازي هنا حكاية طريفة نأتي بنصها:

٦٩٧- قال: وعن بعض السلف، تعلمت معنى السورة من بائع الثلج كان يصيح، ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله، ارحموا من يذوب رأس ماله، فقلت: هذا معنى أنّ الإنسان لفي خسر يمرّ به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسر. [٢]

٦٩٨- ٢.العصر: أحد طرفي النهار، وأقسم بالعصر كما أقسم بالضحى، وقال: (والضحى *واللَّيل إذا سَجى) [٣] كما أقسم بالصبح، وقال: (والصُّبح إذا أَسفَر)[١]،

699-

700- ١- الكشاف:٣|٣٥٧.

٢- تفسير الفخر الرازي:٣٢|٨٥.

٣- الضحى:١-٢.

701-

٧٠٣- وإنّما أقسم بالعصر لأهميته، إذ هو في وقت من النهار يحدث فيه تغيير في نظام المعيشة وحياة البشر، فالأعمال اليومية تنتهي، والطيور تعود إلى أوكارها، وتبدأ الشمس بالميل نحو الغروب، ويستولي الظلام على السماء، ويخلد الإنسان إلى الراحة.

٧٠٤- وهناك قولان آخران:

٧٠٥- أ: المراد عصر الرسول، ذلك لما تضمنته الآيتان التاليتان من شمول الخسران للعالم الإنساني، إلاّ لمن اتبع الحقّ وصبر عليه، وهم المؤمنون الصالحون عملاً، وهذا يؤكد على أن يكون المراد من العصر عصر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وهو عصر بزوغ نجم الإسلام في المجتمع البشري وظهور الحقّ على الباطل.

٧٠٦- ب:المراد به وقت العصر، وهو المروي عن مقاتل، وإنّما أقسم بها، لفضلها بدليل، قوله:(حافِظُوا عَلى الصَّلواتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطى)[٢] كما قيل أنّالمراد من قوله تعالى: (تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللّهِ) [٣] هو صلاة العصر.

٧٠٧- أضف إلى ذلك انّ صلاة العصر يحصل بها ختم طاعات النهار، فهي كالتوبة يختم بها الأعمال.

٧٠٨- ولا يخفى انّ القول الأخير في غاية الضعف، إذ لا صلة بين القسم بصلاة العصر والمقسم عليه، أعني (الإنْسان لفي خُسر) على أنّه لو كان المقسم به هو صلاة العصر، لماذا اكتفى بالمضاف إليه، وحذف المضاف مع عدم توفر قرينة عليه، ومنه يظهر حال الوجه المتقدّم عليه.

709-

710- ١- المدثر:٣٤.

٢- البقرة:٢٣٨.

٣- المائدة:١٠٦.

711-

٧١٣- والظاهر أنّ الوجه الأوّل هو الأقوى، حيث إنّ الحلف بالزمان وتاريخ البشرية يتناسب مع الجواب، أي خسران الإنسان في الحياة، كما سيوافيك بيانه.

٧١٤- وأمّا المقسم عليه، فهو قوله سبحانه : (إِنَّ الإِنْسانَ لَفي خُسْر) والمراد من الخسران هو مضي أثمن شيء لديه وهو عمره، فالإنسان في كلّ لحظة يفقد رأس ماله بنحو لا يُعوَّض بشيء أبداً، وهذه هي سنة الحياة الدنيوية حيث ينصرم عمره ووجوده بالتدريج، كما تنصرم طاقاته إلى أن يهرم ويموت، فأي خسران أعظم من ذلك.

٧١٥- وأمّا الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فأوضح من أن يخفى، لأنّ حقيقة الزمان حقيقة متصرّمة غير قارة، فهي تنقضي شيئاً فشيئاً، وهكذا الحال في عمر الإنسان فيخسر وينقص رأس ماله بالتدريج.

٧١٦- ثمّ إنّه سبحانه استثنى من الخسران من آمن وعمل صالحاً وتواصى بالحق وتواصى بالصبر.

٧١٧- ووجه الاستثناء واضح. لأنّه بذّل رأس ماله بشيء أغلى وأثمن، يستطيع أن يقوم مقام عمره المنقضي فهو بإيمانه وعمله الصالح اشترى حياة دائمة، حافلة برضوانه سبحانه، ونعمه المادية والمعنوية.

٧١٨- يقول سبحانه: (إِنَّ اللّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقاتِلُونَ في سَبيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوراةِ وَالإِنْجيلِ وَالقُرآنِ وَمَنْ أَوفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْعَظيم) .[1]

719-

٧٢٠- ١- التوبة:١١١.

721-

722- (٧٦)

٧٢٣- الفصل السادس

٧٢٤- القسم بالنجم

٧٢٥- وردت كلمة النجم في القرآن الكريم أربع مرّات في أربع سور، [1] وحلف به مرة واحدة، وقال: (وَالنَّجمِ إذا هَوى * ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى * وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهوى * إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحى)[2] هي من السور المكية.

٧٢٦- تفسير الآيات

٧٢٧- النجم في اللغة: الكوكب الطالع، وجمعه نجوم، فالنجوم مرّة اسم كالقلوب والجيوب، ومرّة مصدر كالطلوع والغروب.

٧٢٨- وأمّا «هوى» في قوله: (إذا هَوى) فيطلق تارة على ميل النفس إلى الشهوة، وأُخرى على السقوط من علو إلى سفل.

٧٢٩- ولكن تفسيره بسقوط النجم وغروبه، لا يساعده اللفظ، وإنّما المراد هو ميله، وسيوافيك وجه الحلف بالنجم إذا هوى أي إذا مالَ.

٧٣٠- ثمّ إنّ المراد من النجم أحد الأمرين:

٧٣١- أ: أمّا مطلق النجم، فيشمل كافة النجوم التي هي من آيات عظمة الله سبحانه ولها أسرار ورموز يعجز الذهن البشري عن الإحاطة بها.

732-

٧٣٣- ١- وهي :النحل:١٦، النجم:١، الرحمن:٦، الطارق:٣.
٢- النجم:١-٤.

734-

735- (٧٧)

٧٣٦- ب: المراد هو نجم الشعرى الذي جاء في نفس السورة، قال سبحانه: (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعرى) .[١]

٧٣٧- ونظيره القول بأنّالمراد هو الثريا، وهي مجموعة من سبعة نجوم، ستة منها واضحة وواحد خافت النور، وبه يختبر قوة البصر.

٧٣٨- وربما فسر بالقرآن الذي نزل على قلب رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» طيلة ٢٣ سنة لنزوله نجوماً.[٢] لكن لفظ الآية لا يساعد على هذا المعنى.

٧٣٩- فالله سبحانه إمّا أن يحلف بعامة النجوم أو بنجم خاص يهتدي به السائر، ويدل على ذلك أنّه قيد القسم بوقت هويه، ولعل الوجه هو أنّالنجم إذا كان في وسط السماء يكون بعيداً عن الأرض لا يهتدي به الساري، لأنّه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال، فإذا زال، تبيّن بزواله جانب المغرب من المشرق.[٣]

٧٤٠- وأمّا المقسم عليه: فهو قوله سبحانه: (ما ضَلَّ صاحِبكُمْ وَما غوى *وما ينطق عن الهَوى *إِنْ هُوَ إِلاّوَحيٌ يُوحى) .

٧٤١- جمع سبحانه هناك بين الضلال والغي فنفاهما عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ، والقرآن يستعمل الضلالة في مقابل الهدى، يقول سبحانه: (يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذا اهْتَدَيْتُمْ)[٤]

٧٤٢- كما يستعمل الغي في مقابل الرشد، يقول سبحانه: (وَإِنْ يَرَوا سَبيلَ الرُّشْدِ)

743-

٧٤٤- ١- النجم:٤٩.
٢- انظر الميزان:١٩|٢٧؛ مجمع البيان:٥|١٧٢.
٣- تفسير الفخر الرازي:٢٨|٢٧٩.
٤- المائدة:١٠٥.

745-

746- (٧٨)

٧٤٧- لا يَتَّخذوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوا سَبيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبيلاً) .[١]

٧٤٨- والمهم بيان الفرق بين الضلالة والغواية، فنقول:

٧٤٩- ذكر الرازي أنّ الضلال أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقاً أصلاً، والغواية أن لا يكون له طريق مستقيم إلى المقصد، يدلّك على هذا انّك تقول للموَمن الذي ليس على طريق السداد، انّه سفيه غير رشيد، ولا تقول إنّه ضال. والضال كالكافر والغاوي كالفاسق. [٢]

٧٥٠- وإلى ذلك يرجع ما يقول الراغب: الغيّ جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أنّ الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً، وقد يكون من اعتقاد شيء، وهذا النحو الثاني، يقال له: غيّ. [٣]

٧٥١- وعلى هذا فالآية بصدد بيان نفي الضلالة والغي عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وردّ كلّ نوع من أنواع الانحراف والجهل والضلال والخطأ عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» ليردّ به التهم الموجهة إليه من جانب أعدائه.

٧٥٢- وأمّا بيان الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فواضح، لما ذكرنا من أنّ النجم عند الهوي والميل يهتدي به الساري كما أنّ النبييهتدي به الناس، أي بقوله وفعله وتقريره.

٧٥٣- فكما أنّه لا خطأ في هداية النجم لأنّها هداية تكوينية، وهكذا لا خطأ في هداية الوحي الموحى إليه، ولذلك قال:(إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحى) .

754-

٧٥٥- ١ـ الأعراف:١٤٦.
٢ـ تفسير الفخر الرازي: ٢٨|٢٨٠.
٣ـ مفردات الراغب: ٣٦٩.

756-

757- (٧٩)

٧٥٨- الفصل السابع

٧٥٩- القسم بمواقع النجوم

٧٦٠- حلف سبحانه وتعالى في سورة الواقعة بمواقع النجوم، وقال:(فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُوم *وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظيم *إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيم * فِي كِتابٍمَكْنُون * لا يَمَسُّهُ إلاّالمُطَهَّرُون). [١]

٧٦١- تفسير الآيات

٧٦٢- المراد من مواقع النجوم مساقطها حيث تغيب.

٧٦٣- قال الراغب: الوقوع ثبوت الشيء وسقوطه، يقال: وقع الطائر وقوعاً، وعلى ذلك يراد منه مطالعها ومغاربها، يقال: مواقع الغيث أي مساقطه. [٢]

٧٦٤- ويدل على أنّ المراد هو مطالع النجوم ومغاربها أنّ اللّه سبحانه يقسم بالنجوم وطلوعها وجريها وغروبها، إذ فيها وفي حالاتها الثلاث آية وعبرة ودلالة، كما في قوله تعالى: (فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الجَوارِ الكُنَّس) [٣] وقال: (وَالنَّجْم إِذا هَوى)وقال: (فَلا أُقْسِمُ

بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِب) ويرجح هذا القول أيضاً، انّ النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب، كقوله تعالى: (وَإدْبار)

765-

٧٦٦- ١ـ الواقعة:٧٥ـ ٧٩.
٢ـ مفردات الراغب:٥٣٠، مادة وقع.
٣ـ التكوير:١٥ـ ١٦.

767-

768- (٨٠)

٧٦٩- النُّجوم)[١]صخ، وقوله: (وَالشَّمْسُ وَالْقَمرُ وَالنُّجُوم)[٢].

٧٧٠- وأمّا المقسم عليه: فهو قوله سبحانه: (إنَّهُ لَقُرآنٌ كَريم * في كِتابٍ مَكْنُون * لا يَمَسُّهُ إلاّ الْمُطَّهَرُون) وصف القرآن بصفات أربع:

٧٧١- أ: (لقرآن كريم)، والكريم هو البهي الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كلّشيء أحسنه وأفضله، فالله سبحانه كريم، وفعله أعني القرآن مثله.

٧٧٢- وقال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، فالله كريم يحمد فعاله، والقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

٧٧٣- ب: (في كتاب مكنون) ولعل المراد منه هو اللوح المحفوظ، بشهادة قوله: (بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجيد * في لَوحٍ مَحْفُوظ).[٣]ويحتمل أن يكون المراد الكتاب الذي بأيدي الملائكة، قال سبحانه: (في صُحُفٍمُكَرَّمَة * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَة * بِأَيدِي سَفَرَة * كِرامٍ بَررَة) .[٤]

٧٧٤- ج: (لا يَمَسُّه إلاّالمُطهّرون) فلو رجع الضمير إلى قوله: (لقرآن كريم) ، كما هو المتبادر، لأنّالآيات بصدد وصفه وبيان منزلته فلا يمس المصحف إلاّ طاهر، فيكون الإخبار بمعنى الإنشاء، كما في قوله سبحانه: (وَالمُطلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوء) .[٥]

٧٧٥- ولو قيل برجوع الضمير إلى (كتاب مكنون) فيكون المعنى لا يمس

776-

٧٧٧- ١ـ الطور:٤٩.
٢ـ الحج:١٨.
٣ـ البروج : ٢١ـ ٢٢ .
٤ـ عبس: ١٣ـ ١٦ .
٥ـ البقرة:٢٢٨.

778-

779- (٨١)

٧٨٠- الكتاب المكنون إلاّالمطهرون، وربما يؤيد هذا الوجه بأنّ الآية سيقت تنزيهاً للقرآن من أن ينزل به الشياطين، وانّمحله لا يصل إليه، فلا يمسه إلاّالمطهرون، فيستحيل على

أخابث خلق اللّه وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسّوه، قال تعالى: (وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطين * وَما يَنْبَغي لَهُمْ وَما يَسْتَطيعُون) .[1]

٧٨١- د: (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمين) وهذا هو الذي يركز عليه القرآن في مواقف مختلفة، وانّه كتاب اللّه وليس من صنع البشر.

٧٨٢- وأمّا الصلة بين القسم والمقسم به: فهو واضح، فلأنّ النجوم بمواقعها أي طلوعها وغروبها يهتدي بها البشر في ظلمات البر والبحر، والقرآن الكريم كذلك يهتدي به الإنسان في ظلمات الجهل والغي، فالنجوم مصابيح حسّية في عالم المادة كما أنّ آيات القرآن مصابيح معنوية في عالم المجردات.

٧٨٣- إكمال

٧٨٤- إنّه سبحانه قال:(فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُوم) فالمراد منه القسم بلا شك، بشهادة انّه قال بعده: (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظيم) فلو كان معنى الآية هو نفي القسم فلا يناسب مابعده حيث يصفه بأنّه حلف عظيم، وقد اختلف المفسرون في هذه الآيات ونظائرها، إلى أقوال:

٧٨٥- ١. «لا» زائدة، مثلها قوله سبحانه: (لئلاّ يَعْلَم) .

٧٨٦- ٢. أصلها لأقسم بلام التأكيد، فلمّا أشبعت فتحتها صارت «لا » كما في الوقف.

٧٨٧- ٣. لا نافية بمعنى نفي المعنى الموجود في ذهن المخاطب، ثمّ الابتداء

788-

789- ١- الشعراء:٢١٠-٢١١.

790-

791- (٨٢)

٧٩٢- بالقسم، كما نقول: لا واللّه لا صحة لقول الكفار، أقسم عليه.

٧٩٣- ثمّ إنّه سبحانه يصف هذا القسم بكونه عظيماً، كما في قوله (و انّه لقسم لو تعلمون عظيم)، فقوله: (عظيم)وصف (ا لقسم) أُخر لحفظ فواصل الآيات.

٧٩٤- وهذا القسم هو القسم الوحيد الذي وصفه سبحانه بأنّه عظيم، فالحديث هنا هو حديث على الأبعاد، أبعاد النجوم عنّا، و عن بعضها البعض، في مجرّتنا، وفي كل المجرّات، ولأنّها كلّها تتحرك، فانّ الحديث عن مواقعها يصير أيضاً حديثاً على مداراتها، وحركاتها الأُخرى العديدة، وسرعاتها، وعلى علاقاتها بالنجوم الأُخرى، وعلى القوى العظيمة والحسابات المعقدة، التي وضعت كلّ نجم في موقعه الخاص به وحفظته، في علاقات متوازنة، دقيقة، محكمة، فهي لا يعتريها الاضطراب، ولا تتغير سننها وقوانينها، وهي لا تسير خبط عشواء أو في مسارات متقاطعة أو متعارضة بل هي تسير كلّها بتساوق وتناغم وانسجام وانتظام تامّين دائمين، آيات على قدرة القادر سبحانه.[1]

٧٩٥- يقول الفلكيون: إنّ من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم، ما يمكن روَيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلاّ بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، هذه كلّها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أيّاحتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم كوكب بآخر إلاّ كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد وبعيداً جداً، إن لم يكن مستحيلاً. [٢]

796-

797- ١ ـ أسرار الكون في القرآن:١٩٢.

٢ ـ الله والعلم الحديث:٢٤.

798-

٨٠٠- الفصل الثامن

٨٠١- القسم بالسماء ذات الحبك

٨٠٢- حلف سبحانه في سورة الذاريات بأُمور خمسة، وجعل للأربعة الأُوَل جواباً خاصّاً، كما جعل للخامس من الأقسام جواباً آخر، وبما انّالمقسم عليه متعدّد فصّلنا القسم الخامس عن الأقسام الأربعة، وعقدنا له فصلاً في ضمن فصول القسم المفرد، قال سبحانه:

٨٠٣- (وَالذّاريات ذَرْواً * فَالحامِلاتِ وِقْراً * فَالجارِياتِ يُسْراً * فالمُقَسِّماتِ أَمراً * إنّما تُوعَدُونَ لَصادِق * وإنّ الدِّينَ لَواقع).[١]

٨٠٤- ترى أنّه ذكر للأقسام الأربعة جواباً خاصاً، أعني قوله: (إنّما تُوعدون لَصادق * وانّ الدين لواقع) .

٨٠٥- ثمّ شرع بحلف آخر، وقال:(وَالسَّماءِ ذات الحُبُكِ *إنَّكُم لَفِي قَولٍ مُختَلِف).[٢]

٨٠٦- فهناك قسم خامس وهو (والسماء ذات الحُبك) وله جواب خاص لا يمت بجواب الأقسام الأربعة وهو قوله :(إنَّكُمْ لَفي قول مختلف) .

807-

٨٠٨- ١ ـ الذاريات:١ـ ٦.

٢ ـ الذاريات:٧ـ ٨.

809-

٨١١- تفسير الآيات

٨١٢- الحبك جمع الحباك ، كالكتب جمع كتاب، تستعمل تارة في الطرائق، كالطرائق التي ترى في السماء، وأُخرى في الشعر المجعد، وثالثة في حسن أثر الصنعة في الشيء واستوائه.

٨١٣- قال الراغب: (والسَّماء ذات الحبك) أي ذات الطرائق، فمن الناس من تصور منها الطرائق المحسوسة بالنجوم والمجرة.

٨١٤- ولعلّ المراد منه هو المعنى الأوّل أي السماء ذات الطرائق المختلفة، ويوَيده جواب القسم، وهو اختلاف الناس وتشتت طرائقهم، كما في قوله: (إنّكم لفي قول مختلف) ،و ربما يحتمل أنّ المراد هو المعنى الثالث أي أقسم بالسماء ذات الحسن والزينة، نظير قوله تعالى: (إنّا زَيَّنا السَّماءَ الدُّنيا بزِينةٍ الكَواكِب) [1]

٨١٥- ولكنه لا يناسبه الجواب، إذ لا يصحّ أن يحلف حالف بالأمواج الجميلة التي ترتسم بالسحب أو بالمجرّات العظيمة التي تبدو كأنّها تجاعيد الشعر على صفحة السماء، ثمّ يقول: (إنّكم لفي قول مختلف) ، أي إنّكم متناقضون في الكلام.

٨١٦- وعلى كلّ حال فالمقسم عليه هو التركيز على أنّهم متناقضون في الكلام، فتارة ينسبون عقائدهم إلى آبائهم وأسلافهم فينكرون المعاد، وأُخرى يستبعدون إحياء الموتى بعد صيرورتها عظاماً رميمة، وثالثة يرفضون القرآن والدعوة النبوية ويصفونه بأنّه قول شاعر، أو ساحر، أو مجنون، أو مما علّمه بشر، أو هي من أساطير الأوّلين.

٨١٧- وهذا الاختلاف دليل على بطلان ادّعائكم إذ لا تعتمدون على دليل خاص،

818-

819- ١- الصافات:٦.

820-

821- (٨٥)

٨٢٢- فانّ تناقض المدعي في كلامه أقوى دليل على بطلانه ونفاقه.

٨٢٣- ثمّ إنّه سبحانه يقول: إنّ الإعراض عن الإيمان بالمعاد ليس أمراً مختصاً بشخص أو بطائفة، بل هو شيمة كل مخالف للحق، يقول: (يُؤفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِك)[1].

٨٢٤- والافك: الصرف، والضمير في «عنه» يرجع إلى الكتاب من حيث اشتماله على وعد البأس والجزاء أي يصرف عن القرآن من صرف وخالف الحق.

٨٢٥- وأمّا الصلة بين المقسم به والمقسم عليه: فقد ظهر مما ذكرنا، لما عرفت من أنّمعنى الحبك هو الطرائق المختلفة المتنوعة، فناسب أن يحلف به سبحانه على اختلافهم وتشتت آرائهم في إنكارهم نبوّة النبي ورسالته والكتاب الذي أنزل معه والمعاد الذي يدعو إليه.

826-

٨٢٧- ١- الذاريات:٩.

القسم الثاني: القسم المتعدّد

وفيه فصول:

الفصل الأوّل

القسم في سورة الصافات

حلف سبحانه بالملائكة في السور الأربع التالية:

١. الصافات، ٢. الذاريات، ٣. المرسلات، ٤. النازعات.

وليس المقسم به هو لفظ الملك أو الملائكة، وإنّما هو الصفات البارزة للملائكة وأفعالها، وإليك الآيات:

١. (وَالصّافاتِ صَفّاً * فَالزّاجراتِ زَجْراً * فَالتّالياتِ ذِكراً *إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحد).[1]

٢. (والذّارِياتِ ذَرْواً * فَالحامِلاتِ وِقْراً * فَالجارِياتِ يُسراً * فَالمُقَسِّماتِ أَمْراً * إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادق * وَانَّ الدِّين لواقع) .[2]

٣. (وَالْمُرسَلات عُرفاً * فَالعاصِفاتِ عَصْفاً * وَالنّاشراتِ نَشْراً * فالفارِقات فَرقاً * فالمُلقِياتِ ذِكراً * عُذراً أَو نُذراً * إِنّما تُوعَدُونَ لَواقِع) .[3]

1- الصافات: ١-٤.
2- الذاريات: ١-٦.
3- المرسلات: ١-٧.

---

٤. (وَالنّازِعاتِ غَرْقاً * وَالنّاشِطاتِ نَشْطاً * وَالسّابِحاتِ سَبْحاً * فَالسّابِقاتِ سَبْقاً * فَالمُدَبِّراتِ أَمْراً * يَوْمَ تَرجُف الراجِفَة * تَتْبَعُها الرّادِفَة) .[1]

وهانحن نبحث عن أقسام سورة الصافات والذاريات في فصلين متتالين ونحيل بحث أقسام سورة المرسلات والنازعات إلى محلها حسب ترتيب السور.

وقبل الخوض في تفسير الآيات نقدم شيئاً من التوحيد في التدبير:

إنّ من مراتب التوحيد في الربوبية والتدبير، بمعنى أنّه ليس للعالم مدبّر سواه، يقول سبحانه: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الّذِي خَلَق السَّمواتِ وَالأَرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ استوى عَلى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاّمِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرون) .[2]

فصدر الآية يركّز على حصر الخالق في اللّه، كما يركز على أنّه هو المدبّر، وانّه لو كان هناك سبب في العالم «شفيع» فإنّما هو يوَثر بإذنه سبحانه، فاللّه هو الخالق وهوالمدبّر، قال سبحانه: (اللّهُ الّذي رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْر عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلى العَرْشِ وَسَخَّرَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجرِي لأَجَلٍ مُسمّى يُدبِّرُ الأَمْرَ يُفصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِرَبِّكُمْ تُوقِنُون) .[3]

ويظهر من الآيات الكريمة أنّالعرب في العصر الجاهلي كانوا موحّدين في الخالقية ولكن مشركين في الربوبية والتدبير، وكانوا ينسبون التدبير إلى الآلهة المكذوبة، ولذلك قرر سبحانه في الآيتين كلتا المرتبتين من التوحيد، وانّه خالق، وانّه مدبر، غير أنّمعنى التدبير في التوحيد ليس عزل العلل والأسباب المادية

1-النازعات:١-٧.
2-يونس:٣.
3-الرعد:٢.

والمجردة في تحقّق العالم وتدبيره، بل المراد انّ للكون مدبراً قائماً بالذات متصرفاًكذلك لا يشاركه في التدبير شيء، ولو كان هناك مدبر وحافظ فإنّما هو يدبر بأمره وإذنه، فعندما يُحصر القرآن الكريم التدبير في اللّه يريد التدبير على وجه الاستقلال، أي من يدبّر بنفسه غير معتمد على شيء، وأمّا المثبت لتدبير غيره، فالمراد منه أنّه يدبّر بأمره وإذنه وحوله وقوته على النحو التبعي، فكلّمدبِّر في الكون فهو مَظْهر أمره ومُنفِّذ إرادته،وقد أوضحنا ذلك في الجزء الأوّل من مفاهيم القرآن.

ويظهر من غير واحد من الآيات أنّ الملائكة من جنوده سبحانه وانّها وسائط بين الخالق والعالم، وانّهم يقومون ببعض الأعمال في الكون بأمر من اللّه سبحانه، وستتضح لك أعمالهم في إدارة الكون في تفسير هذه الآية.

إنّ للعلاّمة الطباطبائي كلاماً في كون الملائكة وسائط بينه سبحانه و بين الأشياء، حيث يقول: الملائكة وسائط بينه تعالى و بين الأشياء بدءاً وعوداً، على ما يعطيه القرآن الكريم، بمعنى انّهم أسباب للحوادث فوق المادية في العالم المشهود قبل حلول الموت والانتقال إلى نشأة الآخرة وبعده.

أمّا في العود، أعني: حال ظهور آيات الموت، وقبض الروح، وإجراء السوَال، وثواب القبر وعذابه، وإماتة الكل بنفخ الصور وإحيائهم بذلك، والحشر وإعطاء الكتاب، ووضع الموازين، والحساب، والسوق إلى الجنةوالنار، فوساطتهم فيها غني عن البيان، والآيات الدالة على ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها، والأخبار المأثورة فيها عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأئمّة أهل البيت (عليهم السلام) فوق حد الإحصاء.

وكذا وساطتهم في مرحلة التشريع من النزول بالوحي ودفع الشياطين عن

المداخلة فيه وتسديد النبي وتأييد الموَمنين وتطهيرهم بالاستغفار.

وأمّا وساطتهم في تدبير الاَُمور في هذه النشأة فيدل عليها ما في مفتتح هذه السورة من إطلاق قوله: (والنازِعاتِ غَرقاً * وَالناشِطاتِ نَشطاً * وَالسّابِحاتِ سَبحاً * فَالسابِقاتِ سَبْقاً * فَالمُدبِّراتِ أَمْراً) . [١]

الصافات والقسم بالملائكة

لقد حلف سبحانه بوصف من أوصاف الملائكة، وقال:

أ: (وَالصّافاتِ صَفّاً) .

ب:(فَالزّاجِراتِ زَجْراً) .

ج: (فالتّاليات ذِكراً * إنَّ إلهَكُم لواحِد) . [٢]

وكل هذه الثلاثة مقسم به، والمقسم عليه هو قوله: (إنَّ إلهكم لواحد) وإليك تفسير المقسم به فيها.

فالصافات: جمع صافّة: وهي من الصف بمعنى جعل الشيء على خط مستو، يقول سبحانه: (إنَّ اللّهَ يُحِبُّالَّذِينَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِهِ صَفّاً)[٣] والزاجرات من الزجر، بمعنى الصرف عن الشيء بالتخفيف والنهي، والتاليات من التلاوة، وهي جمع تال أو تالية، غير أنّ المهم بيان ما هو المقصود من هذه العناوين، ولعل الرجوع إلى القرآن الكريم يزيح الغموض عن كثير منها.

يقول سبحانه: حاكياًعن الملائكة: (وَما مِنّا إلاّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُوم * وَإنّا لَنَحْنُ

-1الميزان:٢٠|١٨٢ـ ١٨٣.
-2الصافات:١ـ٤.
-3الصف:٤.

الصّافُّون * وَإنّا لَنَحْنُ المُسَبِّحُون) [١] فينطبق على الملائكة أنّهم الصافّون حول العرش ينتظرون الأمر والنهي من قبل اللّه تعالى.

نعم وصف سبحانه الطير بالصافات، وقال: (وَالطَّيرَ صافّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُوَتَسبِيحَهُ) . [٢]

وقال: (أَوَ لَمْ يَرَوا إِلَى الطَّيْرِ صافّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) [٣] كما أمر سبحانه على أن ينحر البدن وهي صواف، قال سبحانه:(وَالبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللّهِ لَكُمْ فِيها خَيرٌ فاذْكُرُوا اسمَ اللّهِ عَلَيْها صَوَافّ). [٤]

والمعنى: ان تعقل إحدى يديها وتقوم على ثلاث فتنحر كذلك فيسوي بين أظلفتها لئلاّ يتقدم بعضها على بعض.

وعلى كلّ تقدير فمن المحتمل أن يكون المحلوف به هو الملائكة صافات، ويمكن أن يكون المحلوف به كلّ ما أطلق عليه القرآن ذلك الاسم، وإن كان الوجه الأوّل هو الأقرب.

وأمّا الثانية: أي الزاجرات: فليس في القرآن ما يدل على المقصود به، فلا محيص من القول بأنّ المراد الجماعة الذين يزجرون عن معاصي اللّه، ويحتمل أن ينطبق على الملائكة حيث يزجرون العباد عن المعاصي بالإلهام إلى قلوب الناس، قال سبحانه: (وَما أُ نْزِلَ عَلى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَمارُوتَ وَما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ)[5]كما أنّالشياطين يوحون إلى أوليائهم

1-الصافات:١٦٤ـ ١٦٦.
2-النور:٤١.
3-الملك:١٩.
4-الحج:٣٦.
5-البقرة:١٠٢.

بالدعوة إلى المعاصي، قال سبحانه: (وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّعَدُوّاً شَياطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بعضٍ زُخْرُفَ الْقَولِغُرُوراً). [1]

والتاليات: هن اللواتي يتلون الوحي على النبي الموحى إليه.

فالمراد من الجميع الملائكة، وثمة احتمال آخر وهو انّ المراد من الصفات الثلاث هم العلماء، فانّهم هم الجماعة الصافة أقدامها بالتهجد وسائر الصلوات، وهم الجماعة الزاجرة بالمواعظ والنصائح، كما أنّهم الجماعة التالية لآيات اللّه والدارسة شرائعه.

كما أنّ ثمة احتمالاً ثالثاً وهو: انّالمراد هم الغزاة في سبيل اللّه الذين يصفّون أقدامهم، ويزجرون الخيل إلى الجهاد، ويتلون الذكر، ومع ذلك لا يشغلهم تلك الشواغل عن الجهاد.

وأمّا المقسم عليه: فهو قوله سبحانه: (إِنَّ إِلهكم لَواحد) .

والصلة بين المقسم به والمقسم عليه: هو أنّالملائكة أو العلماء أو المجاهدين الذين وصفوا بصفات ثلاث هم دعاة التوحيد وروّاده وأبرز مصاديق من دعا إلى التوحيد على وجه الإطلاق وفي العبادة خاصة.

1-الأنعام:١١٢.

الفصل الثاني

القسم في سورة الذاريات

لقد حلف سبحانه بأُمور أربعة متتابعة وقال:

(وَالذّارِياتِ ذَرْواً) .

(فَالحامِلاتِ وِقْراً) .

(فَالجارِياتِ يُسْراً) .

(فَالمُقسِّمات أمراً * إنّما تُوعدونَ لصادِقٌ * وإنَّ الدِّينَ لَواقِع). [1]

ثمّ حلف بخامس فرداً أي قوله: (وَالسَّماءِ ذاتِ الحُبُك) .

أمّا الأوّل أعني : (والذارِيات ذَرواً) فهي جمع ذارية، ومعناها الريح التي تُنشر شيئاً في الفضاء، يقول سبحانه: (فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُالأَرضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُالرِّياح) . [2] ولعلّهذه قرينة على أنّ المراد من الذاريات هي الرياح.

وأمّا الحاملات، فهي، من الحمل، والوقر- على زنة الفكر- ذو الوزن الثقيل.

والمراد منه السحب، يقول سبحانه: (هُوَ الَّذي يُريكُمُ البَرقَ خَوفاً وَطَمَعاً وَيُنشِئُ السَّحابَ الثِّقال) [3] وقال سبحانه:(حَتّى إذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ)

1-الذاريات:١-٦.
2-الكهف: ٤٥.
3-الرعد:١٢.

مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الماء) . [1]

وأمّا الجاريات، فهي جمع جارية، والمراد بها السفن، بشهادة قوله سبحانه: (حَتّى إذا كُنْتُمْ في الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيح طَيِّبَة) [2] وقال: (وَالفُلْكِ الّتي تَجْري فِي البَحْرِ بِما يَنْفَعُ النّاس)[3] وقال سبحانه:(إنّا لَمّا طَغا الماءُ حَمَلْناكُمْ في الجارِيَة).[4]

وأمّا المقسِّمات، فالمراد الملائكة التي تقسم الأرزاق بواسطتها التي ينتهي إليه التقسيم.

يقول العلاّمة الطباطبائي: وإقسام بالملائكة الذين يعملون بأمره فيقسمونه باختلاف مقاماتهم، فانّ أمر ذي العرش بالخلق والتدبير واحد، فإذا حمله طائفة من الملائكة على اختلاف أعمالهم انشعب الأمر وتقسم بتقسمهم، ثمّ إذا حمله طائفة هي دون الطائفة الأُولى تقسم ثانياً بتقسمهم وهكذا، حتى ينتهي إلى الملائكة المباشرين للحوادث الكونية الجزئية فينقسم بانقسامها ويتكثر بتكثرها.

والآيات الأربع تشير إلى عامة التدبير حيث ذكرت انموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في البر وهو الذاريات ذرواً، وانموذجاًممّا يدبّر به الأمر في البحر وهو الجاريات يسراً، وانموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في الجو وهو الحاملات وقراً، وتمم الجميع بالملائكة الذين هم وسائط التدبير، وهم المقسِّمات أمراً.

فالآيات في معنى أن يقال: أُقسم بعامة الأسباب التي يتم بها أمر التدبير في

-1الأعراف:٥٧.
-2يونس:٢٢.
-3البقرة:١٦٤.
-4الحاقة:١١.

العالم ان كذا كذا، وقد ورد من طرق الخاصة والعامة عن علي (عليه السلام) تفسير الآيات الأربع. [1]

وبذلك يعلم قيمة ما روي عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في تفسير الآية عندما سأله ابن الكوا عن هذه الأقسام الأربعة ـ وهو يخطب على المنبر ـ فقال:

قال: ما الذاريات ذرواً؟قال (عليه السلام) : الرياح.

قال: فالحاملات وقراً؟ قال (عليه السلام) : السحاب.

قال: فالجاريات يسراً؟ قال: السفن.

قال: فالمقسِّمات أمراً ؟ قال: الملائكة.

ثمّ إنّه سبحانه حلف بالذاريات بواو القسم، وحلف بالثلاثة بعطفها على الذاريات بالفاء فيحمل المعطوف معنى القسم أيضاً.

هذا كلّه حول المقسم به.

وأمّا المقسم عليه: هو قوله: (إنّما تُوعَدُونَ لَصادِق * وَإِنَّ الدِّين لواقع) أي إنّما توعدون من الثواب و العقاب والجنة والنار لصادق، أي صدق لابدّ من كونه فهو اسم الفاعل، موضع المصدر، وانّ الدين أي الجزاء لواقع والحساب لكائن يوم القيامة.

وعلى ذلك (إنَّما تُوعَدونَ لَصادق) جواب القسم، وقوله: (انّ الدين لواقع) معطوف عليه بمنزلة التفسير، والمعنى أقسم بكذا وكذا، انّالذي توعدونه من يوم البعث وانّ اللّه سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر لصادق وانّ الجزاء لواقع. [2]

1- الميزان:١٨|٣٦٥.
2- الميزان:١٨|٣٦٦.

وأمّا وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه هو انّه سبحانه أقسم بعامة الأسباب التي يتم بها أمر التدبير في العالم، لغاية أنّ هذا التدبير ليس سدى وبلا غاية، والغاية هي يوم الدين والجزاء وعود

الإِنسان إلى المعاد، إذ لولا الغاية لأصبح تدبير الأمر في البر والبحر والجو وتدبير الملائكة شيئاً عبثاً بلا غاية، فهو سبحانه يحاول أن يبين أنّما يقوم به من أمر التدبير لغاية البعث وانتقال الإِنسان من هذه الدار إلى دار أُخرى هو أكمل.

وفي ختام البحث نود أن ننقل شيئاً عن عظمة الرياح والسحاب والتي كشف عنها العلم الحديث.

فالرياح هي حركة الهواء الموجود في الطبقات السفلى من الجو، إذا سارت متوازية مع سطح الأرض، وتختلف سرعة الرياح حتى تصل إلى مائة كيلومتر في الساعة فتسمى زوبعة، وإذا زادت على مائة سمّيت إعصاراً، وقد تصل سرعة الأعصار إلى ٢٤٠ كيلومتراً في الساعة، والرياح هي العامل المهم في نقل بخار الماء وتوزيعه، ومن تكاثف هذا البخار في الهواء بالتبريد،بعد أن تصل حالته إلى ما فوق التشبع تتكون السحب. ويختلف ارتفاع السحب على حسب نوعها،فمنها ما يكون على سطح الأرض كالضباب، ومنها ما يكون ارتفاعه بعيداًإلى أكثر من ١٢ كيلومتراً. كسحاب السيرس الرقيق.

وعندما تكون سرعة الرياح الصاعدة أكثر من ثلاثين كيلومتراً في الساعة، لا يمكن نزول قطرات المطر المتكون، وذلك بالنسبة لمقاومة هذا الريح لها،ورفعها معه إلى أعلى، حيث ينموحجمها، ويزداد قطرها. ومتى بلغت أقطار النقط نصف سنتيمتر، تتناثر إلى نقط صغيرة لا تلبث أن تكبر بدورها، ثمّ تتجزأ بالطريقة السابقة وهكذا... وكلما تناثرت هذه النقط، تشحن بالكهرباء الموجبة وتنفصل الكهرباء

السالبة التي تحمل الرياح...وبعد مدة تصير السحب مشحونة شحناً وافراً بالكهرباء. فعندما تقترب الشحنتان بعضهما من بعض بواسطة الرياح كذلك يتم التفريغ الكهربائي وذلك بمرور شرارة بينهما،ويستغرق وميض البرق لحظة قصيرة وبعده يسمع الرعد، و هو عبارة عن الموجات الصوتية التي يحدثها الهواء،وما هي إلاّبرهة حتى تخيّم على السماء سحابة المطر القاتمة اللون، ثمّ تظهر نقط كبيرة من الماء تسقط على الأرض، وفجأة يشتد المطر ويستمر حتى تأخذ الأرض ما قدر الله لها من الماء. (١)

١ ـ الله والعلم الحديث:١٣٥ـ ١٣٦.

القسم في سورة الطور

حلف سبحانه في سورة الطور بأُمور ستة، وقال:

(وَالطُّور * وَكِتابٍ مَسْطُور * في رقٍّ مَنْشُور *وَالْبَيتِ المَعْمُور * وَالسَّقْفِ المَرْفُوع * وَالْبَحْرِ المَسْجُور * إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِع * ما لَهُ مِنْ دافِع) . [1]

تفسير الآيات

الطور: اسم جبل خاص، بل اسم لكلّ جبل، ولو قلنا بصحّة الإطلاق الثاني، فالمراد الجبل المخصوص بهذه التسمية لا كلّ جبل بشهادة كونه مقروناً بالألف واللام.

ومسطور: من السطر وهو الصف من الكتابة، يقال: سطَّر فلان كذا، أي كتب سطراً سطراً.

والظاهر انّ المراد من «مسطور» هنا هو المثبّت بالكتابة، قال سبحانه (كانَذلِكَ في الكِتابِمَسْطُوراً)(أي مثبّتاً ومحفوظاً).

و رقّ: ما يكتب فيه شبه الكاغد.

---

١ ـ الطور: ١ـ ٨.

ومنشور: من النشر، وهو البسط والتفريق، يقال: نشر الثوب والصحيفة وبسطهما، يقال: (وَإِذا الصُّحُف نُشرت) وقال سبحانه: (وَإِلَيْهِ النُّشور) .

والمسجور: من السجر وهي تهييج النار، يقال: سجرت التنور، ومنه البحر المسجور، وقوله: (وإِذَا البِحارُ سُجِّرت)وربما يفسر المسجور بالمملوء.

والمراد من الطور ـ كما تشهد به القرائن-: هو الجبل المعروف الذي كلّم اللّه فيه موسى (عليه السلام) ، ولعلّه هو جبل طور سينين، قال سبحانه: (وَطُورِ سِينِين) . [1] وقال سبحانه: (وَنادَيْناهُمِنْ جانِبِالطُّورِالأَيْمَن) [2] وقال في خطابه لموسى (عليه السلام) : (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالواد المُقدَّس طُوىً) . [3]

وقال سبحانه: (نُودي مِنْ شاطئِ الوادِ الأَيْمَنِ فِي البُقْعَةِ المُبارَكةِ مِنَ الشَّجَرة) . [4] حك وهذه الآيات تثبت انّ المقسم به جبل معين، ومع الوصف يحتمل أن يراد مطلق الجبل لما اودع فيه من أنواع نعمه، قال تعالى: (وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوقِها وَبارَك فِيها) . [5]

والمراد من كتاب مسطور: هو القرآن الكريم الذي كان يكتب في الورق المأخوذ من الجلد.

وأمّا وصفه بكونه منشوراً مع أنّ عظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا بخطه وورقه، هو الإشارة إلى الوضوح، لأنّ الكتاب المطوي لا يعلم ما فيه، فقال هو في

١ـ التين:٢.
٢ـ مريم:٥٢.
٣ـ طه:١٢.
٤ـ القصص:٣٠.
٥ـ فصلت:١٠.

رق منشور وليس كالكتب المطوية، ومع ذلك يحتمل أن يراد منه صحائف الأعمال، وقد وصفه سبحانه بكونه منشوراً، وقال: (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ كِتاباً يَلقاهُ مَنْشُوراً) [١] كما يحتمل أن يراد منه اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه ما كان وما يكون و ما هو كائن تقرأه ملائكة السماء.

وهناك احتمال رابع،وهو انّ المراد هو التوراة، وكانت تكتب بالرق وتنشر للقراءة، ويوَيده اقترانه بالحلف بالطور.

وامّا البيت المعمور: فيحتمل أن يراد منه الكعبة المشرفة، فانّها أوّل بيت وضع للناس، ولم يزل معموراً منذ أن وضع إلى يومنا هذا، قال تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذي بِبَكَّة مُباركاً وَهُدى لِلْعالَمين) . [٢]

ولعل وصفه بالعمارة لكونه معموراً بالحجاج الطائفين به والعاكفين حوله.

وقد فسر في الروايات ببيت في السماء إزاء الكعبة تزوره الملائكة، فوصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به.

والسقف المرفوع: والمراد منه هو السماء، قال سبحانه: (والسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزان) . [٣]

وقال: (اللّهُالّذي رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَونَها) . [٤]

قال سبحانه: (وَجَعَلْنَا السَّماءَسَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعرِضُون)[٥]

ولعلّ المراد هو البحر المحيط بالأرض الذي سيلتهب قبل يوم القيامة ثمّ ينفجر،

١ـ الإسراء:١٣.
٢ـ آل عمران:٩٦.
٣ـ الرحمن:٧.
٤ـ الرعد:٢.
٥ـ الأنبياء:٣٢.

قال سبحانه: (وَإِذَا البِحارُ سُجِّرَت)[1] ،وقال تعالى: (وَإِذَا البِحارُ فُجِّرَت) .[2]

ثمّ إنّ هذه الأقسام الثلاثة الأُولى يجمعها شيء واحد وهو صلتها بالوحي وخصوصياته،حيث إنّ الطور هو محل نزول الوحي، والكتاب المسطور هو القرآن أو التوراة، والبيت المعمور هو الكعبة أو البيت الذي يطوف به الملائكة الذين هم رسل اللّه.

وأمّا الاثنان الآخران، أعني: السقف المرفوع والبحر المسجور، فهما من الآيات الكونية ومن دلائل توحيده ووجوده وصفاته.

لكن الرازي ذهب إلى أنّالأقسام الثلاثة التي بينها صلة خاصة، هي الطور والبيت المعمور والبحر المسجور ،وإنّما جمعها في الحلف بها لأنّها أماكن لثلاثة أنبياء ينفردون بها للخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع اللّه. أمّا الطور فانتقل إليه موسى، والبيت محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والبحر المسجور يونس (عليه السلام) ، وكل خاطب اللّه هناك، فقال موسى: (أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُمِنّا إِنْ هِيَ إِلاّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاء) [3] وقال أيضاً: (أرني أنظر إليك) ، واما نبيّنا محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقال: «السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين لا أحصي ثناء عليك كما أثنيت على نفسك»، وأمّا يونس فقال: (لاإِلهَ إِلاّأَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمين)[4] فصارت الأماكن شريفة بهذه الأسباب وحلف اللّه تعالى بها.

١ـ التكوير:٦.
٢ـ الانفطار:٣.
٣ـ الأعراف:١٥٥.
٤ـ الأنبياء:٨٧.

وأمّا ذكر الكتاب، فانّ الأنبياء كان لهم في هذه الأماكن مع اللّه تعالى كلام، والكلام في الكتاب واقترانه بالطور أدلّ دليل على ذلك، لأنّ موسى (عليه السلام) كان له مكتوب ينزل عليه وهوبطور.

وأمّا ذكر السقف المرفوع ومعه البيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .[1]

وأمّا المقسم عليه فهو قوله: (إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِع * ما لَهُ مِنْ دافِع) .[2]

وأمّا وجه الصلة بين المقسم به على تعدّده والمقسم عليه، هو انّ المقسم عليه عبارة عن وقوع العذاب لا محالة وعدم القدرة على دفعه، فإذاً ناسب أن يقسم بالكتاب أي القرآن والتوراة اللّذين جاء فيهما أخبار القيامة وحتميتها.

كما ناسب أن يحلف بمظاهر القدرة وآيات العظمة كالسقف المرفوع والبحر المسجور حتى يعلم أنّصاحب هذه القدرة لقادر على تحقيق هذا الخبر،وهو عبارة عن أنّ عذابه لواقع وليس له دافع.

ويكفيك في بيان عظمة البحار أنّها تشغل حيّزاً كبيراً من سطح الأرض يبلغ نحو ثلاثة أرباعه، وتختلف صفات الماء عن الأرض، بسهولة تدفقه من جهة إلى أُخرى، حاملاً الدفء أو البرودة، وله قوة انعكاس جيدة لشعاع الشمس، ولذا فانّ درجة حرارة البحار لا ترتفع كثيراً أثناءالنهار، ولا تنخفض بسرعة أثناء الليل فلا تختلف درجة الحرارة أثناء الليل عن النهار بأكثر من درجتين فقط.

ويقول أحد العلماء: إنّ البحر يباري الزمان في دوامه، ويطاول الخلود في

١ـ تفسير الفخر الرازي:٢٨|٢٤٠.
٢ـ الطور:٧ـ ٨.

بقائه، تمر آلاف الأعوام بل وعشرات الأُلوف والملايين،وهو في يومه هو أمسه وغده،تنقلب الجبال أودية،والأودية جبالاً، ويتحول التراب شجراً،والشجر تراباً، والبحر بحر لا يتحول ولا يتغير، وقد دلت الأبحاث العلمية انّ أقصى أعماق البحار تعادل أقصى علو الجبال.[١]

كما ناسب أن يحلف بالطور، لأنّ بعض المجرمين كانوا يتصورون انّ الجبال الشاهقة ستدفع عنهم عذاب اللّه، كما قال ابن نوح ((عليه السلام) سَآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُني مِنَ الماء) قال: (لا عاصِمَ اليَوم مِنْ أَمْرِ اللّه إلاّمَنْ رَحِمَ)[٢]

فحلف بالطور إيذاناً إلى هذه الحقيقة، وهي أنّهذه الجبال أقلّ من أن تدفع العذاب أو تحول بين اللّه ووقوع المعاد.

كما يمكن أن يكون الحلف بالطور لأجل كونه آية من آيات اللّه الدالة على قدرته التي لا تحول بينه و بين عذابه شيء.

١ـ اللّه والعلم الحديث: ٧٥.
٢ـ هود:٤٣.

٣ـ الفصل الرابع

٤ـ القسم في سورة القلم

٥ـ حلف سبحانه بالقلم ومايسطرون معاً مرّة واحدة، وقال: (ن والقَلَمِ وَما يَسْطُرُون *ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون *وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُون *وَإِنَّكَ لَعلى خُلُقٍ عَظيم).[١]

٦ـ وقبل تفسير الآيات نقدّم شيئاً وهو أنّ لفظة «ن» من الحروف المقطعة وقد تقدم تفسيرها.

٧- وهناك وجوه أُخرى نذكرها تباعاً:

٨- أ: «ن» هو السمكةالتي جاء ذكرها في قصة يونس ((عليه السلام) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً) . [٢]

٩- ب: انّ المراد به هو الدواة،و منه قول الشاعر:

١٠- إذا ما الشوق يرجع بي اليهم ألقت النون بالدمع السجوم ج:انّ «ن» هو المداد الذي تكتب به الملائكة.

١١- ولكن هذه الوجوه ضعيفة، لأنّ الظاهر منها أنّها مقسم به، وعندئذٍ يجب أن يجرّ لا أن يسكّن.

12-
13- ١- القلم:١- ٤.
٢- الأنبياء:٨٧.

14-

١٦- يقول الزمخشري: وأمّا قولهم هو الدواة، فما أدري أهو وضع لغوي أم شرعي؟ ولا يخلو إذا كان اسماً للدواة، من أن يكون جنساً أو علماً، فإن كان جنساً فأين الإعراب والتنوين؟ وإن كان علماً فأين الاعراب؟ وأيّهما كان فلابدّ له من موقع في تأليف الكلام. [١]

١٧- وبذلك يعلم وجه تجريد «ن» عن اللاّم واقتران القلم بها.

١٨- **تفسير الآيات**

١٩- ١. حلف سبحانه بالقلم، وقال: (والقلم ومايسطرون) وهل المراد منه جنس القلم الذي يكتب به من في السماء ومن في الأرض، قال تعالى: (وَرَبُّكَ الأَكْرَم * الَّذي عَلَّمَ بِالقَلَم * عَلَّمَ الإِنْسانَ مالَمْ يَعْلَم) . [٢] فمنّ سبحانه وتعالى بتيسير الكتابة بالقلم،كما منَّ بالنطق، وقال: (خَلَقَالإِنْسان * عَلَّمَهُ البَيان) . [٣]

٢٠- فالقلم والبيان نعمتان كبيرتان، فبالبيان يخاطب الحاضرين، كما أنّه بالقلم يخاطب الغائبين فتمكن بهما تعريف القريب والبعيد بما في قرارة ذهنه.

٢١- وربما قيل: إنّ المراد هو القلم المعهود الذي جاء في الخبر: «إنّأوّل ما خلق اللّه هو القلم» ولكنّه تفسير بعيد عن أذهان المخاطبين في صدر الإسلام الذين لم يكونوا عارفين بأوّل ما خلق اللّه ولا بآخره.

٢٢- ثمّ إنّه سبحانه حلف بـ (ما يسطرون) ، فلو كانت «ما» مصدرية يكون المراد «وسطرهم» فيكون القسم بنفس الكتابة، كما يحتمل أن يكون المراد

23-
24- ١- الكشاف:٤|١٢٦، تفسير سورة القلم .
٢- العلق: ٣- ٥.

٣ ـ الرحمن: ٣ـ ٤.

25-

-٢٧ المسطور والمكتوب، وعلى ذلك حلف سبحانه بجنس القلم وبجنس الكتابة، أو بجنس المكتوب، كأنّه قيل: «أحلف بالقلم وسطرهم أو مسطوراتهم».

-٢٨ ثمّ إنّ في الحلف بالقلم والكتابة والمكتوب إلماعاً إلى مكانة القلم والكتابة في الإسلام، كما أنّ في قوله سبحانه: (علّم بالْقَلَم) إشارة إلى ذلك، والعجب أنّ القرآن الكريم نزل وسط مجتمع ساده التخلّف والجهل والاَُميّة، وكان من يجيد القراءة والكتابة في العصر الجاهلي لا يتجاوز عدد الأصابع، وقد سرد البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» أسماء سبعة عشر رجلاً في مكة، وأحد عشر من يثرب.[١]

-٢٩ وهذا ابن خلدون يحكي في مقدمته: أنّ عهد قريش بالكتابة لم يكن بعيداً، بل كان حديثاً وقريباً بعهد رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) . [٢] ومع ذلك يعود القرآن ليؤكد بالحلف بالقلم على مكانة القلم والكتابة في الحضارة الإسلامية، وجعل في ظل هذا التعليم أمة متحضرة احتلّت مكانتها بين الحضارات. وليس هذه الآية وحيد نسجها في الدعوة إلى القلم والكتابة بل ثمة آية أُخرى هي أكبر آية في الكتاب العزيز، يقول سبحانه: (يا أَيُّهَا الَّذينَآمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍمُسمّىً فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالعَدْلِ وَلا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْيَكْتُبَ كَما عَلَّمهُ اللّهُ فَلْيَكْتُب...). [٣]

-٣٠ كما أنّالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حثّعلى كتابة حديثه الذي هو المصدر الثاني بعد القرآن الكريم:

-٣١ ١. أخرج أبو داود في سننه، عن عبد اللّه بن عمرو، قال: كنت أكتب كلّ

32-

33- ١ ـ فتوح البلدان : ٤٥٧ .

٢ ـ مقدمة ابن خلدون:٤١٨.

٣ ـ البقرة:٢٨٢.

34-

-٣٦ شيء أسمعه من رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أُريد حفظه فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كلّشيء تسمعه ورسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) بشر يتكلم في الغضب والرضا؟ فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول اللّه(صلى الله عليه وآله وسلم) فأومأ باصبعه إلى فيه، وقال :« اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلاّحقّاً». [١]

-٣٧ ٢. أخرج الترمذي في سننه عن أبي هريرة، قال: كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)فيسمع من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الحديث

فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ، فقال: يا رسول اللّه إنّي أسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه، فقال رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) : «استعن بيمينك» وأومأ بيده للخط. [٢]

٣٨- ٣. أخرج الخطيب البغدادي عن رافع بن خديج، قال: مرّ علينا رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً، ونحن نتحدّث، فقال: «ما تحدّثون؟»

٣٩- فقلنا: نتحدّث عنك يا رسول اللّه .

٤٠- قال: «تحدّثوا، وليتبوّأ من كذّب عليّ مقعداً من جهنم».

٤١- ومضى (صلى الله عليه وآله وسلم) بحاجته،ونكس القوم روَوسهم...فقال:«ما شأنكم؟ ألا تحدّثون؟».

٤٢- قالوا: الذي سمعنا منك، يا رسول اللّه.

٤٣- قال: «إنّي لم أرد ذلك، إنّما أردت من تعمّد ذلك» قال: فتحدثنا.

٤٤- قال: قلت:يا رسول اللّه: إنّا نسمع منك أشياء، فنكتبها.

45-
46- ١ـ سنن أبي داود:٣|٣١٨، برقم ٣٦٤٦، باب في كتابة العلم؛ مسند أحمد:٢|١٦٢؛سنن الدارمي:١|١٢٥، باب من رخص في كتابة العلم.
٢ـ سنن الترمذي: ٥|٣٩، برقم ٢٦٦٦.

47-

٤٩- قال: «اكتبوا ولا حرج». [١]

٥٠- وبعد هذه الأهمية البالغة التي أولاها الكتاب العزيز والنبيللكتابة، أفهل من المعقول أن ينسب إليه انّه منع من كتابة الحديث؟! مع أنّها أحاديث آحاد تضاد الكتاب العزيز والسنّة والسيرة المتواترة ونجلُّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الحيلولة دون كتابة السنّة.

٥١- هذا والكلام ذو شجون وقد أسهبنا البحث حوله في كتاب «الحديث النبوي بين الرواية والدراية». [٢]

٥٢- هذا كلّه حول المقسم به.

٥٣- وأمّا المقسم عليه: فقد جاء في قوله سبحانه: (ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون)والمراد من النعمة النبوّة والإيمان، والباء للسببية أي لست أنت بسبب هذه النعمة بمجنون، رداً على من جعل نبوّته ونزول القرآن عليه دليلاً على جنونه، قال سبحانه: (وَإِنْ يَكادُ الَّذينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمّا سمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَما هُوَ إِلاّذِكْرٌ لِلْعالَمين) .[٣]

٥٤- ويحتمل أن يكون المراد من النعمة كلّما تفضل عليه سبحانه من النعم وراء الإيمان والنبوّة كفصاحته وبلاغته وعقله الكامل وخلقه الممتاز، فانّ هذه الصفات تنافي حصول الجنون.

٥٥- واحتمل الرازي أن يكون جملة (بِنِعْمة رَبّك) مقطوعة عمّا قبله و ما بعده، وانّ وزانها وزان بحمد اللّه في الجمل التالية:

56-
57- ١- تقييد العلم: ٧٢و٧٣.
٢- انظر صفحة ١٢- ٣٢ من نفس الكتاب.
٣- القلم:٥١- ٥٢.

58-

٦٠- أنت- بحمد اللّه- عاقل.

أنت - بحمد اللّه- لست بمجنون.

أنت - بنعمة اللّه- فهيم.

أنت - بنعمة اللّه- لست بفقير.

وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية «ما أنت ـ في ظل نعمة ربّك- بمجنون.[1]

٦١- وهناك احتمال ثالث وهو نفس هذا الاحتمال، وجعل الباء حرف القسم، وعلى ذلك يكون الحلف مقروناً بالدليل، وهو: انّ من أنعم اللّه عليه بهذه النعم الإلهية كيف يتهمونه بالجنون، مضافاً إلى أنّ لك في الآخرة لأجراً غير ممنون، كما قال سبحانه:(وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غير مَمنون)والممنون مشتق من مادة «منّ» بمعنى القطع أي الجزاء المتواصل إلى الأبد.

٦٢- ثمّ إنّه سبحانه يستدل بدليل آخر على نزاهته من هذه التهمة، وهي قوله سبحانه: (وَإِنَّكَ لَعلى خُلقٍ عَظيم) فمن كان على خلق يعترف به القريب والبعيد فكيف يكون مجنوناً ؟!

٦٣- فقد تجسَّم في شخصية الرسول العطف والحنان إلى القريب والبعيد، والصبر والاستقامة في طريق الهدف، والعفو عن المتجاوز بعد التمكن والقدرة، والتجافي عن الدنيا وغرورها، إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق، وبذلك ظهر انّ الحلف صار مقروناً بالدليل.

٦٤- وأمّا الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فهو انّالقلم والكتابة آية العقل

65-
66- ١- تفسير الفخر الرازي:٢٩|٧٩.

67-

٦٩- والدراية، فحلف به لغاية نفي الجنون عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

٧٠- يقول المراغي: أقسم ربّنا بالقلم ومايسطر به من الكتب: انّمحمّداً الذي أنعم اللّه عليه بنعمة النبوّة ليس بمجنون كما تدّعون، وكيف يكون مجنوناً والكتب والأقلام أعدت لكتابة ما ينزل عليه من الوحي؟! [1]

٧١- ونختم البحث بحديث رواه الشيخ يحيى البحراني عن النبيفي كتابه «الشهاب في الحكم والآداب»: قال:قال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) : «ثلاثة تخرق الحجب وتنتهي إلى ما بين يدي الله:

٧٢- ١. صرير أقلام العلماء.

٧٣- ٢. وطء أقدام المجاهدين.

٧٤- ٣. صوت مغازل المحسنات». [٢]

75-
76- ١- تفسير المراغي:٢٩|٢٧.
٢- الشهاب في الحكم والآداب:٢٢.

77-

78-(110)

٧٩- **الفصل الخامس**

٨٠- **القسم في سورة الحاقة**

٨١- حلف سبحانه بما يُبصر وبما لا يُبصر، قال سبحانه:(فَلا أُقْسِمُ بِما تُبصرون * وما لاتُبصِرُون * إِنَّهُلَقَولُ رَسولٍ كَرِيمٍ * وَما هُوَ بِقَولِ شاعِرٍ قَليلاً ما تُوَْمِنُون * ولا بِقَولِ كاهِنٍ قَليلاً ما تَذَكَّرون * تنزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالَمين). [١]

٨٢- **تفسير الآيات**

٨٣- قوله: (بما تبصرون ومالا تبصرون)يعم ما سوى الله لأنّه لا يخرج عن قسمين مبصر وغير مبصر، فيشمل الدنيا والآخرة والأجسام والأرواح والإنس والجن والنعم الظاهرة والباطنة، كما يشمل الخالق والمخلوق، فانّ الخالق داخل في قوله: ومالا تبصرون، وعلى هذا الوجه فقد حلف سبحانه بعالم الوجود وصحيفته.

٨٤- ولكن استبعده السيد الطباطبائي، قائلاً: بأنّه من البعيد من أدب القرآن أن يجمع الخالق والمخلوق في صف واحد ويعظمه تعالى وما صنع تعظيماً مشتركاً في عرض واحد. [٢]

85-(118)

٨٦- **الفصل السابع**

٨٧- **القسم في سورة القيامة**

٨٨- حلف سبحانه في سورة القيامة بأمرين: ١. يوم القيامة، ٢. النفس اللوامة، وقال: (لا أُقْسِمُ بِيَومِ القِيامَة * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِاللَّوّامَةِ * أَيَحْسَبُ الاِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ * بلى قادِرينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الاِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ * يَسَئَلُأَيّانَ يَومُ القِيامَة) . [١]

٨٩- تفسير الآيات

٩٠- اختلف المفسرون في كلمة «لا » على أقوال [٢]

٩١- الأوّل: انّ لا أقسم كلمة قسم وانّ العرب تزيد كلمة لا في القسم، كما قال امروَ القيس:

٩٢- لا وأبيك ابنة العامـري * لا يدعي قـوم انّـي أفر

٩٣- الثاني: انّلا نافية، رد لكلام قد تقدّم، وجواب لهم، وذلك هو المعروف في كلام الناس في محاوراتهم، فإذا قال أحدهم: لا، واللّه ما فعلت كذا، قصد بقوله: «لا» ردّ الكلام السابق، فهم لما أنكروا البعث، قيل لهم ليس الأمر على ما ذكرتم، ثمّ أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة إنّ البعث حقّ.

94-

١- القيامة:١- ٦.-95

٢- مرّ الكلام فيه أيضاً لاحظ ص: ٨١.

96-

97-(١١٩)

٩٨- الثالث: انّها للنفي، على معنى انّي لا أعظمه بأقسامي به حقّإعظامه، فانّه حقيق بأكثر من هذا، وهو يستحق فوق ذلك.

٩٩- فعلى المعنى الأوّل«لا» زائدة، ولكنّه بعيد في كلام ربّ العزة، والمتعين أحد المعنيين الأخيرين.

١٠٠- أمّا المقسم به: فهو أمران:

١٠١- أ: يوم القيامة.

١٠٢- ب: النفس اللوامة.

١٠٣- أمّا الأوّل: فهو يوم البعث الذي يجمع اللّه فيه الناس على صعيد واحد، وإنّما سمّي يوم القيامة لأجل انّه يقوم به الحساب، قال سبحانه حاكياً عن إبراهيم: (رَبَّنا اغْفِر لي وَلِوالِدَيّ وَلِلْمُوَْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِساب) [١] وانّه يوم يقوم به الاشهاد، قال سبحانه: (إنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالّذِينَآمَنُوا فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَيَومَ يَقُومُ الأَشْهاد) [٢] وانّه يوم يقوم فيه الروح، قال سبحانه:(يَومَ يَقُومُالرُّوحُ وَالمَلائِكةُ صَفّاً) [٣]، وانّه يوم يقوم الناس لربّ العالمين، كما قال سبحانه:(يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِين)[٤]، إلى غير ذلك من الوجوه التي توضح وجه تسمية اليوم بالقيامة، وقد جاء يوم القيامة في القرآن سبعين مرّة، فلم تستعمل القيامة إلاّمضافة إلى يوم.

104-

105- ١- إبراهيم:٤١.

٢- غافر:٥١.

٣- النبأ: ٣٨.

٤- المطففين:٦.

106-

107- (١٢٠)

١٠٨- وأمّا الثاني: أي النفس اللوامة صيغة مبالغة من اللوم، وهي عدل الإنسان بنسبته إلى ما فيه لوم، يقال لمته فهو ملوم، قال سبحانه: (فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ) [1] إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها اللوم وما اشتق منه.

١٠٩- واختلف المفسرون في المراد من النفس اللوامة على أقوال:

١١٠- الأوّل: هي نفس آدم التي لم تزل تتلوّم على فعلها الذي خرجت به من الجنة والظاهر أنّ هذا القول من قبيل تطبيق الكلي على مصداقه، وليس هناك قرينة على أنّها، المراد فقط.

١١١- الثاني: مطلق النفس، إذ ليس من نفس برّة ولا فاجرة إلاّ وهي تلوم نفسها يوم القيامة إن كانت عملت خيراً قالت: هلا ازددت، وإن كانت عملت سوءاً قالت: يا ليتني لم أفعل.

١١٢- الثالث: وربما تختص بالنفس الكافرة الفاجرة.

١١٣- الرابع: عكس ذلك، والمراد نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على ارتكاب المعصية وتحفّزه على إصلاح ما بدا منه.

١١٤- والظاهر أنّ القول الثاني هو المتعيّن،أي مطلق النفس التي تلوم صاحبها سواء أكان لأجل فوت الخير أو ارتكاب الشر.

١١٥- وعلى كلّ حال فالآية تحكي عن المنزلة العظيمة التي تتمتع بها النفس اللوامة إلى حدّ أقسم بها سبحانه وإلاّلما حلف بها.

١١٦- وأمّا المقسم عليه فمحذوف أي لتُبْعثُنَّ.

117-

118- ١- إبراهيم:٢٢.

119-

120- (١٢١)

١٢١- وأمّا الصلة بين المقسم عليه أعني قوله: «لتبعثن» والحلف «بالنفس اللوامة» فهي ظهور اللوم من هذه النفس يوم القيامة، فانّ نفس الكافر لا تلومه في الدنيا إلاّقليلاً، في حين يتجلّى اللوم ويتجسّد يوم القيامة أكثر فأكثر.

١٢٢- وأمّا كرامة النفس اللوامة فواضحة جداً، لأنّها تردع الإنسان عن اقتراف الذنوب، ولا يمكن خداعها، وهي يقظة تزجر الإنسان دائماً بالنسبة إلى ما عمله وقصده.

١٢٣- إنّ إبراهيم لما حطّم الأصنام وجعلها جذاذاً إلاّكبيراً لهم لعل القوم يرجعون إليه ويرتدعون عن عقيدتهم بإلوهيتها، فلمّا رجعوا ووقفوا على أنّه عمل إبراهيم أحضروه للاقتصاص منه، وخاطبوه بقولهم: (أأنت فعلت هذا بآلهتنا)، فأجابهم إبراهيم: (بل فَعَلَهُ

كَبيرهُم) ، ثمّ أمرهم بسوَاله عن الجريمة التي ارتكبها، فبهُت الجمع من هذا السوَال وظلوا صامتين لعجزهم عن الإِجابة، فعندئذ تبين لهم أنّ مثل هذا الصنم أحط من أن يعبد، فاستيقظ وجدانهم وأخذت نفوسهم تلومهم على النهج الذي اختطوه، بل الآلهة التي عبدوها حيث وجدوا انّها غير خليقة بالعبادة والخضوع، وهذا ما يحكي عنه القرآن بقوله: (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنّكم أنتم الظالمون) أي خاطبوا أنفسهم بالظلم، فكأنّه قال بعضهم لبعض أنتم الظالمون حيث تعبدون مالا يقدر عن الدفع عن نفسه وما نرى الأمر إلاّكما قال هذا الفتى.

١٢٤- هذه هي النفس اللوامة التي تظهر بين الحين والآخر وتزجر الإِنسان عن ارتكاب الذنوب.

١٢٥- وهذا الذي يسمّيه علم النفس في يومنا هذا بالوجدان الأَخلاقي، ويصفون الوجدان محكمة لا تحتاج إلى قاض سوى النفس، وهي التي تقوم بتأسيس

126-

127- (١٢٢)

١٢٨- المحكمة، وتشخص المجرم، وتصدر الحكم بلا هوادة، ودون أي تهاون.

١٢٩- وفي الآيات القرآنية الأُخرى إشارة إلى تلك المرتبة من النفس، يقول سبحانه: (وَنَفْسٍ وَما سَوّاها *فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها) . [١]

١٣٠- يقول الإِمام الصادق في تفسير الآية: «بيّن لها ما تأتي وما تترك». [٢]

١٣١- إنّاللوم والعزم فرع معرفة النفس بخير الأُمور وشرّها، فلو لم تكن عالمة من ذي قبل لم تصلح للوعظ ولا للزجر، ولأجل ذلك،يقول سبحانه: (أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَينَين *وَلِساناً وَشَفَتَيْن * وَهَدَيْناهُ النَّجْدَين) . [٣]

١٣٢- يقول الإِمام الصادق (عليه السلام) :«هداه إلى نجد الخير والشر». [٤]

١٣٣- ثمّإنّ مراتب الزجر تختلف حسب صفاء النفس وكدورتها وابتعادها عن ممارسة الشر، يقول الإِمام الصادق (عليه السلام) : «إنّ اللّه إذا أراد بعبد خيراً طيّب روحه فلا يسمع معروفاً إلاّعرفه ولا منكراً إلاّأنكره». [٥]

نعم، ما حباه اللّه سبحانه لكلّ إنسان من النفس اللوامة، كرامة ونعمة عظيمة، حيث يعرف على ضوئها الحسن من القبيح والخير من الشر، ولكنّه لو مارس الشرّ مدّة لا يستهان بها ربما تعوق النفس عن القضاء في الخير بالخير والشر بالشر، بل ربما يرى الشر خيراً والخير شراً، وذلك فيما إذا زاوله الإِنسان كثيراً بنحو ترك بصماته على روحه ونفسه وقضائه وتفكيره، وقد أشار سبحانه إلى أنّ قبح وأد البنات وقتل الأَولاد ـ لأي غاية من الغايات كانت- أمر يدركه كلّإنسان، ولكن ترى أنّ بعض المشركين يستحسن عمله هذا ويعدّه من مفاخره

134-

135- ١ـ الشمس:٧ـ ٨.
٢ـ الكافي: ١|١٦٣.
٣ ـ البلد: ٨ـ ١٠.
٤ـ الكافي: ١|١٦٣.
٥ـ اثبات الهداة: ١|٨٧.

136-

١٣٨- وكراماته، يقول سبحانه: (وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِكَثيرٍ مِنَ الْمُشْرِكينَقَتْلَ أَولادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ) .[١]

١٣٩- فقد أثر الشركاء في عقول الوثنيين وتفكيرهم فصار القبيح حسناً والشر خيراً، يقول سبحانه: (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاء).[٢]

١٤٠- وعلى هذا فليست النفس اللوامة باقية على صفاتها وقضائها الحق في جميع الظروف والحالات بل ربما يكون قضاؤها على خلاف ما هو الحقّ، لا سيما فيمن يزاول الجرم طيلة عمره، فربما يعود في آخر عمره يتنكر لجميع المقدسات ويسيطر فعله القبيح على آفاق فكره وإيمانه، يقول سبحانه: (ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساءُوا السُّوأى أَن كَذَّبُوا بِآياتِ اللّهِ).[٣]

١٤١- **مراتب النفس في الذكر الحكيم**

١٤٢- إنّالقرآن الكريم جعل للنفس الإنسانية مراتب:

١٤٣- ١. النفس الأمّارة، ٢. النفس اللوّامة، ٣. النفس المطمئنة، ٤. النفس الراضية المرضية، وإليك وصف هذه المراتب بنحو موجز:

١٤٤- **١. النفس الأمّارة**

١٤٥- إنّالنفس بطبعها تدعو إلى مشتهياتها من السيئات، فليس للإنسان أن يبرّىَ

146-

147- ١ـ الأنعام:١٣٧.
٢ـ فاطر:٨.
٣ـ الروم:١٠.

148-

١٥٠- نفسه من الميل إلى السوء،وإنّما له أن يكف عن أمرها بالسوء ودعوتها إلى الشر وذلك برحمة من اللّه سبحانه، يقول سبحانه نقلاً عن يوسف (عليه السلام) : (وَما أُبَرِّىَُ نَفْسِي إِنَّ النَّفس لأَمّارةٌ بالسُوء إِلاّمَا رَحِمَ رَبّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيم) .[١]

١٥١- فما أبرأ يوسف نفسه عن أمرها بالسوء، وإنّما كفّها عن ارتكاب السوء، لأَنّ النفس طبعت على حب الشهوات التي تدور عليها رحى الحياة.

١٥٢- والأخلاق جاءت لتعديل ذلك الميل، وجعلها في مسير السعادة وحفظها عن الإفراط و التفريط، فالمادية نادت بالانصياع لرغبات اللّذات مهما أمكن،والرهبانية نادت بكبح جماح اللذات والشهوات والعزوف عن الحياة واللوذ في الكهوف والأديرة، ولكن الإسلام راح يدعو إلى منهج وسط بينهما، ففي الوقت الذي يدعو إلى أكل الطيّبات ويندّد بمن يحرّمها، ويقول: (قُلْمَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الّتي أَخْرجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيّباتِ مِنَ الرِّزْق) . [٢] يأمر بكبح جماح النفس عن ارتكاب المعاصي والسيئات التي توجب الفوضى في المجتمع وتسوقه إلى الانحلال الأخلاقي.

١٥٣- ٢. النفس اللوّامة

١٥٤- النفس اللوامة وهي الضمير الذي يوَنّب الإنسان على ما اقترفه من السيئات و الآثام خصوصاً بعد ما يفيق من سكراتها فيجد نفسه تنحدر في دوامة الندم على ما ارتكبه وإنابة إلى الحقّ، وهذا يدل على أنّ النفس ممزوجة بالميل إلى الشهوات،

155-

156- ١- يوسف:٥٣.

٢- الأعراف:٣٢.

157-

158- (١٢٥)

١٥٩- وفي الوقت نفسه فيها ميل إلى الحقّ والعدل، ولكلّ تجلّي خاص، فانّ غلبة الشهوات يحول دون ظهور نور العقل فيقترف المعاصي والآثام، ولكنّه ما إن تخمد شهوته، حينها يصفو أمامه جمال الحياة وتنكشف مضرات اللّذة فتستيقظ النفس اللوامة وتأخذ باللوم والعذل إلى حد ربما تدفع بصاحبها إلى الانتحار، لعدم تحمله وطأة تلك الجريمة.

١٦٠- وهذه النفس حيّة يقظة لا تتصدع بكثرة الذنوب وإن كانت تضعف بممارستها.

١٦١- ٣. النفس المطمئنّة

١٦٢- وهي النفس التي توصلها النفس اللوّامة إلى حد لا تعصف بها عواصف الشهوة، وتطمئن برحمة الرب وتحس بالمسوَولية الموضوعة على عاتقها أمام اللّه وأمام المجتمع، يقول سبحانه: (يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّة) [١] فصاحب هذه النفس يمتلئ بالسرور والفرح عند الطاعة وتجد في صميمها لذة للطاعة وحلاوة للعبادة لا يمكن وصفها بالقلم واللسان.

١٦٣- وبعبارة أُخرى: النفس المطمئنّة هي التي تسكن إلى ربها وترضى بما رضي به، فترى نفسها عبداً لا يملك لنفسه شيئاً من خير أو شر أو نفع أو ضر، ويرى الدنيا دار مجاز، وما يستقبله فيها من غنى أو فقر أو أي نفع وضر، ابتلاء وامتحاناً إلهياً، فلا يدعوه تواتر النعم عليه إلى الطغيان، وإكثار الفساد، والعلو والاستكبار، ولا يوقعه الفقر والفقدان في الكفر وترك الشكر، بل هو في مستقر من العبودية لا

164-

165- ١ـ الفجر:٢٧ـ ٢٨.

166-

١٦٨- ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط. [١]

١٦٩- وهناك كلمة قيمة للحكيم محمد مهدي النراقي حول واقع النفوس الثلاث، يقول:

١٧٠- والحقّ انّها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف أحوالها، فإذا غلبت قوتها العاقلة على الثلاثة الأُخر، وصارت منقادة لها مقهورة منها، وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سمّيت«مطمئنة»، لسكونها حينئذٍ تحت الأوامر والنواهي،وميلها إلى ملائماتها التي تقتضي جبلتها،وإذا لم تتم غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع، وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي حصلت للنفس لوم وندامة سمّيت «لوامة». وإذا صارت مغلوبة منها مذعنة لها من دون دفاع سميت «أمّارة بالسوء» لأنّه لما اضمحلت قوتها العاقلة وأذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة، فكأنّما هي الآمرة بالسوء. [٢]

١٧١- ٤. النفس الراضية المرضية

١٧٢- وهي النفس المتكاملة الراضية من ربّها رضى الرب منها، واطمئنانها إلى ربّها يستلزم رضاها بما قدّر وقضى تكويناً أو حكم به تشريعاً، فلا تسخطها سانحة ولا تزيغها معصية، وإذا رضى العبد من ربّه، رضى الرب منه، إذ لا يسخطه تعالى إلاّ خروج العبد من زي العبودية، فإذا لزم طريق العبودية استوجب ذلك رضى ربّه ولذا عقب قوله: «راضية» بقوله: «مرضية».

١٧٣- قوله تعالى: (فَادْخُلِي فِي عِبادي * وَادْخُلي جَنّتي) تفريع على قوله: (ارجعي إِلى رَبِّكِ) وفيه دلالة على أنّ صاحب النفس المطمئنّة في زمرة عباد

174-

175- ١ـ الميزان:٢٠|٢٨٥.

٢ـ جامع السعادات:١|٦٣ـ ٦٤.

176-

١٧٨- الله حائز مقام العبودية، وذلك انّه لما اطمأنّ إلى ربّه انقطع عن دعوى الاستقلال ورضى بما هو الحقّ من ربّه فرأى ذاته وصفاته وأفعاله ملكاً طلقاً لربّه فلم يرد فيما قدر وقضى، ولا فيما أمر ونهى، إلاّ ما أراده ربّه، وهذا ظهور العبودية التامة في العبد، ففي قوله: (فَادْخُلي في عِبادي) تقرير لمقام عبوديتها.

١٧٩- وفي قوله:(وادْخُلي جَنَّتي) تعيين لمستقرها، وفي إضافة الجنة إلى ضمير المتكلم تشريف خاص، ولا يوجد في كلامه تعالى إضافة الجنة إلى نفسه تعالى وتقدس إلاّفي هذه الآية. [١] هذا كلّه حول المقسم به.

١٨٠- وأمّا المقسم عليه: فهو محذوف معلوم بالقرينة أي «لتبعثنّ» وإنّما حذف للدلالة على تفخيم اليوم وعظمة أمره، قال تعالى: (ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتيكُمْ إلاّبَغْتَة) [٢] وقال: (إنَّ السّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخفِيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى)[٣] ، وقال: (عَمّ يَتَساءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ العَظيم) [٤]. [٥]

١٨١- وأمّا وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فواضح، فانّ الإنسان إذا بعث يوم القيامة يلوم نفسه لأجل ما اقترف من المعاصي، إذ في ذلك الموقف الحرج تنكشف الحجب ويقف الإنسان على ما اقترف من المعاصي والخطايا، فيندم على ما صدر منه قال سبحانه: (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمّا رَأَوُا العَذابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) [٦]، وقال سبحانه: (وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَروا بَلْ مَكْرُ اللَّيلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نكفُرَ باللهِ وَنَجْعل لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَة لَمّا رَأَوا العَذابَ وَجَعَلْنَا الأَغلالَفي أَعْناقِ الَّذينَ كَفَرُوا هَل يُجْزونَ إلاّما كانوا يَعْمَلُونَ).[٧]

١٨٢- وبالجملة فيوم القيامة يوم الندم والملامة، ولات حين مناص.

183-

١٨٤- ١- الميزان: ٢٠|٢٨٦.
٢- الأعراف:١٨٧.
٣- طه:١٥.
٤- النبأ:١-٢.
٥- الميزان: ٢٠|١٠٤.
٦- يونس:٥٤.
٧- سبأ:٣٣.

١٨٦- الفصل الثامن

١٨٧- القسم في سورة المرسلات

١٨٨- لقد حلف سبحانه بأوصاف الملائكة ، وقال:

١٨٩- أ: (وَالمُرسَلاتِ عُرْفاً) .

١٩٠- ب: (فَالعاصِفاتِعَصْفاً).

١٩١- ج: (وَالنّاشِراتِ نَشْراً) .

١٩٢- د: (فَالفارِقاتِ فَرْقاً) .

١٩٣- هـ: (فَالْمُلْقِياتِذِكراً * عُذْراً أو نُذْراً * إنَّما تُوعَدونَ لَواقِعٌ) . [١]

١٩٤- حلف سبحانه في هذه الآيات بأُمور يعبّر عنها بـ:«المرسلات، فالعاصفات، والناشرات، فالفارقات، فالملقيات ذكراً عذراً أونذراً.

١٩٥- وقد اختلفت كلمة المفسّرين في تفسير هذه الأقسام، وقد غلب عليهم تفسيرها بالرياح المرسلة العاصفة الناشرة، بيد أنّوحدة السياق تبعثنا إلى تفسيرها بأمر واحد تنطبق عليه هذه الصفات، فنقول:

١٩٦- ١. (المُرْسَلاتِ عُرفاً) أي أقسم بالجماعات المرسلات من ملائكة الوحي، والعرف ـ بالضم فالسكون ـ الشعر الثابت على عنق الفرس ويشبه به الأُمور إذا تتابعت يقال جاءُوك كعرف الفرس، يقول سبحانه: (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ)

197-
198- ١ ـ المرسلات:١ ـ ٧.

199-

200- (129)

٢٠١- بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ) [1]، ومع ذلك فقد فسر بالرياح المرسلة المتتابعة.

٢٠٢- ٢.(فَالعاصِفاتِ عَصْفاً) والعصف هو سرعة السير، والريح العاصفة بمعنى سرعة هبوبها، والمراد اقسم بالملائكة الذين يرسلون متتابعين فيسرعون في سيرهم كالرياح العاصفة.

٢٠٣- ومع ذلك فسر بالرياح الشديدة الهبوب.

٢٠٤- ٣. (وَالنّاشِراتِ نَشْراً) قسم آخر، والمراد نشر الصحيفة والكتاب، والمعنى أقسم بالملائكة الناشرين للصحف المكتوب عليها الوحي للنبي ليتلقاه، ومع ذلك فقد فسّرت بالرياح التي تنشر السحاب نشراً للغيث كما تلقحه للمطر.

٢٠٥- ٤. (فَالفارِقات فَرقاً) المراد به الملائكة الذين يفرقون بين الحقّوالباطل والحلال والحرام، وذلك لأجل حمل الوحي المتكفّل ببيان الحقّ والباطل ومع ذلك فقد فسّر بالرياح التي تفرق بين السحاب فتبدّده.

٢٠٦- ٥. (فَالْمُلْقياتِ ذِكراً) المراد به الملائكة، تلقي الذكر على الأنبياء وتلقيه الأنبياء إلى الأُمم.

٢٠٧- وعلى ذلك فالمراد بالذكر هو القرآن يقرأونه على النبي، أو مطلق الوحي النازل على الأنبياء المتلو عليهم.

٢٠٨- ثمّ بيّن انّالغاية من إلقاء الوحي أحد الأمرين إمّا الإعذار أو الإنذار، والإعذار الإتيان بما يصير به معذوراً، والمعنى انّه يلقون الذكر لتكون عذراً لعباده المؤمنين

209-

210- ١- النحل:٢.

211-

212- (130)

٢١٣- بالذكر وتخصيصاً لغيرهم.

٢١٤- وبعبارة أُخرى يلقون الذكر ليكون إتماماً للحجة على المكذبين وتخويفاً لغيرهم، هذا هو الظاهر من الآيات.

٢١٥- وأمّا المقسم عليه فهو قوله: (إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِع) وما موصولة والخطاب لعامة البشر، والمراد إنّما توعدون يوم القيامة بما فيه من العقاب والثواب أمر قطعي وواقع وإنّما عبر بواقع دون كائن، لأنّه أبلغ في التحقّق.

٢١٦- ثمّ إنّ الصلة بين المقسم به والمقسم عليه واضحة، لأنّ أهم ما تحمله الملائكة وتلقيه هو الدعوة إلى الإيمان بالبعث والنشور، ويؤيد ذلك قوله (عذراً أو نذراً)أي إتماماً للحجة على الكفار وتخويفاً للمؤمنين كل ذلك يدل على معاد قطعي الوقوع يحتج به على الكافر ويجزي به المؤمن.

٢١٧- وهناك بيان للعلاّمة الطباطبائي، حيث يقول: من لطيف صنعة البيان في هذه الآيات الست انّها مع ما تتضمن الإقسام لتأكيد الخبر الذي في الجواب تتضمن الحجة على مضمون الجواب وهو وقوع الجزاء الموعود، فانّ التدبير الربوبي الذي يشير إليه القسم، أعني: إرسال المرسلات العاصفات ونشرها الصحف وفرقها وإلقاءها الذكر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)تدبير لا يتم إلاّمع وجود التكليف الإلهي والتكليف لا يتم إلاّمع تحتم وجود يوم معه للجزاء يجازي فيه العاصي والمطيع من المكلفين.

٢١٨- فالذي أقسم تعالى به من التدبير لتأكيد وقوع الجزاء الموعود هوبعينه حجّة على وقوعه كأنّه قيل: اقسم بهذه الحجّة انّ مدلولها واقع. [١]

219-

220- ١- الميزان:٢٠|١٤٧.

221-

222- (131)

٢٢٣- **الفصل التاسع**

٢٢٤- **القسم في سورة النازعات**

٢٢٥- حلف سبحانه بأوصاف الملائكة خمس مرات، وقال:

٢٢٦- (وَالنّازِعاتِ غَرْقاً) .

٢٢٧- (وَالنّاشِطاتِ نَشْطاً) .

٢٢٨- (وَالسّابِحاتِ سَبْحاً) .

٢٢٩- (فَالسّابِقاتِ سَبْقاً) .

٢٣٠- (فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً * يَوْمَ تَرْجُفُ الرّاجِفَةُ * تَتْبَعُها الرّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَومَئِذٍ واجِفَةٌ * أَبْصارُها خاشِعَةٌ) . [١]

٢٣١- حلف سبحانه في هذه السورة بطوائف وصفها بـ: النازعات، الناشطات، السابحات، السابقات، المدبرات.

٢٣٢- النازعات من النزع، يقال: نزع الشيء جذبه من مقره، كنزع القوس عن كنانته.

٢٣٣- والناشطات من النشط وهو النزع أيضاً، ومنه حديث أُمّ سلمة فجاء عمار وكان أخاها من الرضاعة ونشط زينب من حجرها، أي نزعها؛ ونشط الوحش من بلد إلى بلد إذاخرج.

234-

235- ١ ـ النازعات: ١ ـ ٩.

236-

٢٣٨- والسابحات من السبح السريع في الماء وفي الهواء، ويقال: سبح سبحاً وسباحة، واستعير لمرّ النجوم في الفلك ولجري الفرس.

٢٣٩- والسابقات من السبق والمدبرات من التدبير.

٢٤٠- وأمّا الغرق اسم أُقيم مقام المصدر، وهو الإغراق، يقال: غرق في النزع إذا استوفى في حدّ القوس وبالغ فيه.

٢٤١- هذه هي معاني الألفاظ، وأمّا مصاديقها فيحتمل أن تكون هي الملائكة، فهي على طوائف بين نازع وناشط وسابح وسابق ومدبر، قال الزمخشري: أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها أي تخرجها، وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي تسرع فتسبق إلى ما أمروا به فتدبر أمراً من أُمور العباد مما يصلحهم في دينهم أو دنياهم. [١]

٢٤٢- والمقسم عليه محذوف وهو لتبعثنّ يدل عليه ما بعده من ذكر القيامة.

٢٤٣- ولا يخفى انّالطائفة الثانية على هذا التفسير نفس الطائفة الاَُولى، فالملائكة الذين ينزعون الأرواح من الأجساد هم الذين ينشطون الأرواح ويخرجونها، ولكن يمكن التفريق بينهما، بأنّ الطائفة الاَُولى هم الموكّلون على نزع أرواح الكفار من أجسادهم بقسوة وشدة بقرينة قوله غرقاً، وقد عرفت معناه، وأمّا الناشطات هم الموكلون بنزع أرواح المؤمنين برفق وسهولة.

٢٤٤- والسابحات هم الملائكة التي تقبض الأرواح فتسرع بروح المؤمن إلى الجنة، وبروح الكافر إلى النار، والسبح الإسراع في الحركة، كما يقال: للفرس سابح إذا أسرع في جريه.

245-
246- ١ـ الكشاف:٣|٣٠٨.

247-

248- (133)

٢٤٩ـ والسابقات وهم ملائكة الموت تسبق بروح المؤمن إلى الجنة وبروح الكافر إلى النار.

٢٥٠ـ فالمدبرات أمراً المراد مطلق الملائكة المدبرين للأُمور، ويمكن أن يكون قسم من الملائكة لكلّ وظيفة يقوم بها، فعزرائيل موكل بقبض الأرواح وغيره موكل بشيء من التدبير.

٢٥١ـ ثمّ إنّ الأشد، انطباقاً على الملائكة، هو قوله : (فالمدبرات أمراً) ، وهو قرينة على أنّ المراد من الأخيرين هم الملائكة، وبذلك يعلم أنّ سائر الاحتمالات التي تعجّ بها التفاسير لا يلائم السياق، فحفظ وحدة السياق يدفعنا إلى القول بأنّهم الملائكة.

٢٥٢ـ وبذلك يتضح ضعف التفسير التالي:

٢٥٣ـ المراد بالنازعات الملائكة القابضين لأرواح الكفّار، وبالناشطات الوحش، وبالسابحات السفن، وبالسابقات المنايا تسبق الآمال، وبالمدبرات الأفلاك، ولا يخفى انّه لا صلة بين هذه المعاني وما وقع جواباً للقسم وما جاء بعده من الآيات التي تذكر يوم البعث وتحتج على وقوعه.

٢٥٤ـ والآيات شديدة الشبه سياقاً بما مرّ في مفتتح سورة الصافات والمرسلات، والظاهر انّ المراد بالجميع هم الملائكة.

٢٥٥ـ يقول العلاّمة الطباطبائي: وإذ كان قوله: (فالمدبرات أمراً)مفتتحاً بفاء التفريع الدالة على تفرع صفة التدبير على صفة السبق، وكذا قوله: (فَالسّابِقاتِ سَبْقاً) مقروناً بفاء التفريع الدالة على تفرع السبق على السبح، دلّ ذلك على مجانسة المعاني المرادة بالآيات الثلاث: (وَالسّابِحاتِ سَبحاً * فَالسّابِقاتِ سَبْقاً *)

256-

257- (134)

٢٥٨ـ فَالمُدبِّراتِ أَمْراً) فمدلولها أنّهم يدبرون الأمر بعدما سبقوا إليه ويسبقون إليه بعد ما سبحوا أي أسرعوا إليه عند النزول، فالمراد بالسابحات والسابقات هم المدبرات من الملائكة باعتبار نزولهم إلى ما أمروا بتدبيره. [1]

٢٥٩ـ تدبير الملائكة

٢٦٠ـ إنّ القرآن الكريم يعرّف اللّه سبحانه هو المدبر والتوحيد في التدبير من مراتبه فله الخلق والتدبير، ولكن هذا لا ينافي أن يكون بينه سبحانه وبين عالم الخلق وسائط في التدبير يدبرون الأُمور بإرادته ومشيئته، ويوَدّون علل الحوادث وأسبابها في عالم الشهود،

والآيات الواردة حول تدبير الملائكة كثيرة تدل على أنّهم يقومون بقبض الأرواح وإجراء السوَال، وإماتة الكل بنفخ الصور وإحيائهم بذلك ووضع الموازين والحساب والسوق إلى الجنّة والنار.

٢٦١- كما أنّهم وسائط في عالم التشريع حيث ينزلون مع الوحي ويدفعون الشياطين عن المداخلة فيه وتسديد النبي وتأييد المؤمنين.

٢٦٢- وبالجملة هم (عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون) [٢]

٢٦٣- فالله سبحانه يجري سننه ومشيئته بأيديهم، فيقبض الأرواح بواسطتهم، وينزل الوحي بتوسيطهم،وليس لواحد منهم في عملهم أي استقلال واستبداد، وفي الحقيقة جنوده سبحانه يقتفون أمره. [٣]

٢٦٤- قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في حقّ الملائكة: فمنهم سجود لا

265-

266- ١ ـ الميزان:٢٠|١٨١.

٢ ـ الأنبياء:٢٦ـ ٢٧.

٣ ـ الميزان:٢٠|١٨٨، نقل بتلخيص.

267-

٢٦٩- يركعون،وركوع لا ينتصبون، وصافّون لا يتزايلون، ومسبِّحون لا يسأمون، لا يغشاهم نومُ العين، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النِّسيان، ومنهم أُمناءُ على وحيه، وألسنة إلى رُسُله، ومختلفون بقضائه وأمره، ومنهم الحفظةُلعباده والسَّدنَة لأبواب جنانه، ومنهم الثابتة في الأرضين السُّفلى أقدامُهم، والمارقةُ من السماء العليا أعناقُهُم، والخارجة من الأقطار أركانُهم، والمناسبة لقوائم العرش اكتافهم. ناكسة دونه أبصارهم، متلفِّعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم و بين من دونهم حُجُب العزَّة وأستار القدرة، لا يتوهَّمون ربَّهم بالتَّصوير، ولا يجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدُّونه بالأماكن، ولا يُشيرون إليه بالنَّظائر. [١]

٢٧٠- وقد عرفت أنّ المقسم عليه هو كتبعثن، وأمّا الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، هو ما قدمناه في الفصل السابق وهي انّ الملائكة هم وسائط التدبير وخلق العالم وتدبيره لم يكن سدى ولا عبثاً بل لغاية خاصة وهو عبارة عن بعث الناس ومحاسبتهم وجزائهم بما عملوا.

271-

٢٧٢- ١ ـ نهج البلاغة:١٩ـ ٢٠،الخطبة الأُولى.

٢٧٤-

٢٧٥- **الفصل العاشر**

٢٧٦- **القسم في سورة التكوير**

٢٧٧- قد حلف سبحانه في سورة التكوير بالكواكب بحالاتها الثلاث، مضافاً إلى الليل المدبر، والصبح المتنفس، وقال:(فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوارِ الكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَريمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ * مطاع ثَمَّ أَمِين) . (١)

٢٧٨- **تفسير الآيات**

٢٧٩- أشار سبحانه إلى الحلف الأوّل، أي الحلف بالكواكب بحالاتها الثلاث بقوله:

٢٨٠- الخُنَّس، الجوار، الكنس.

٢٨١- كما أشار إلى الحلف بالليل إذا أدبر، بقوله: (وَاللَّيْلِإِذا عَسْعَس) .

٢٨٢- وإلى الثالث أي الصبح المتنفس بقوله: (والصُّبْحِ إِذا تَنَفَّس) .

٢٨٣- وجاء جواب القسم في قوله: (إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَريم) فوصف الرسول بصفات خمس : كريم، ذي قوة، عند ذي العرش مكين، مطاع، ثم أمين.

٢٨٤- فلنرجع إلى إيضاح الأقسام الثلاثة ثمّ نعرج إلى بيان الرابطة بين المقسم به

285-

286- (1) التكوير: ١٥- ٢١ -.

287-

٢٨٩- والمقسم عليه.

٢٩٠- أمّا الحلف الأوّل فهو رهن تفسير الألفاظ الثلاثة.

٢٩١- فقد ذكر سبحانه أوصافاً ثلاثة:

٢٩٢- الأوّل: الخنس: وهو جمع خانس كالطُلَّب جمع طالب، فقد فسره الراغب في مفرداته بالمنقبض، قال سبحانه: (مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الخَنّاس) أي الشيطان الذي يخنس، أي ينقبض إذا ذكر الله تعالى.

٢٩٣- وقال تعالى: (فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّس) أي بالكواكب التي تخنس بالنهار.

٢٩٤- وقيل: الخنس من زحل والمشتري والمريخ، لأنّها تخنس في مجراها أي ترجع،واخنست عنه حقه أي أخرته. (١)

٢٩٥- فاللفظ هنا بمعنى الانقباض أو التأخر، ولعلهما يرجعان إلى معنى واحد، فانّ لازم التأخر هو الانقباض.

٢٩٦- الثاني: الجوار: جمع جارية، والجري السير السريع مستعار من جري الماء.

٢٩٧- قال الراغب: الجري، المرّ السريع، وأصله كمرِّ الماء.

٢٩٨- قال سبحانه: (وَمِنْ آياتِهِ الجوارِ فِي البَحْرِ كَالأَعلام) (٢) أي السفينة التي تجري في البحر.

٢٩٩- الثالث: الكنس: جمع كانس والكنوس دخول الوحش كالظبي والطير كناسه أي بيته الذي اتخذه لنفسه واستقراره فيه،وهو كناية عن الاختفاء

٣٠٠- فالمقسم به في الواقع هي الجواري بما لها من الوصفين: الخنوس

301-

302- 1- مفردات الراغب: مادة خنس.

2- الشورى:٣٢.

303-

304- (138)

٣٠٥- والكنوس، وكأنّه قال: فلا أقسم بالجوار الخنس والكنس، فقد ذهب أكثر المفسرين أنّ المراد من الجواري التي لها هذان الوصفان هي الكواكب الخمسة السيارة التي في منظومتنا الشمسية، والتي يمكن روَيتها بالعين المجردة، وهي عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، زحل و يطلق عليها السيارات المتغيرة.

٣٠٦- وتسمية هذه الخمسة بالسيارات والبواقي بالثابتات لا يعني نفي الجري والحركة عن غيرها، إذ لاشك انّ الكواكب جميعها متحركات، ولكن الفواصل والثوابت بين النجوم لو كانت ثابتة غير متغيرة فتطلق عليها الثابتات، ولو كانت متغيرة فتطلق عليها السيارات، فهذه السيارات الخمسة تتغير فواصلها عن سائر الكواكب.

٣٠٧- إذا عرفت ذلك: فهذه الجواري الخمس لها خنوس وكنوس، وقد فسرا بأحد وجهين:

٣٠٨- الأوّل: أنّها تختفي بالنهار، وهو المراد من الخنّس، وتظهر بالليل وهو المراد من الكنّس.

٣٠٩- يلاحظ عليه:أنّتفسير خنس بالاختفاء لا يناسب معناها اللغوي، أعني: الانقباض والتأخر إلاّ أن يكون كناية عن الاختفاء.

٣١٠- كما أنّتفسير الكنس بالظهور خلاف ما عليه أهل اللغة في تفسيره بالاختفاء، وما ربما يقال : من أنّـها تظهر في أفلاكها كما تظهر الظبـاء في كنسها [1]

٣١١- لا يخلو من إشكال، فأنّ الظباء لا تظهر في كنسها بل تختفي فيها.

٣١٢- ولو سلمنا ذلك فالأولى أن يفسر الجواري بمطلق الكواكب لا الخمسة المتغيرة .

313-

314- ١- تفسير المراغي:٣٠|٥٧.

315-

316- (139)

٣١٧- الثاني: أن يقال: انّ خنوسها وانقباضها كناية عن قرب فواصلها ثمّ هي تجري وتستمر في مجاريها، وكنوسهاعبارة عن قربها و تراجعها

٣١٨- قال في اللسان: «وكنست النجوم كنساً، كنوساً: استمرت من مجاريها ثم انصرفت راجعة. [1]

٣١٩- وعلى ذلك فاللّه سبحانه يحلف بهذه الأنجم الخمسة بحالاتها الثلاث المترتبة في الليل، وهي انّها على أحوال ثلاثة.

٣٢٠- منقبضات حينما تقرب فواصلها ثمّ إنّها بالجري يبتعد بعضها عن بعض، ثمّ ترجع بالتدريج إلى حالتها الأُولى فهي بين الانقباض والابتعاد بالجري ثمّ الرجوع إلى حالتها الأُولى.

٣٢١- (واللّيل إذا عَسْعَس) :وقد فسر عسعس بإدبار الليل وإقباله، فإقبالها في أوّله وإدبارها في آخره.

٣٢٢- والظاهر انّ المراد هو إقبالها.

٣٢٣- قال الزجاج: عسعس الليل إذا أقبل وعسعس إذا أدبر، ولعل المراد هو الثاني بقرينة الحلف الثالث أعني (وَالصُّبح إذا تَنَفَّس) ،والمراد من تنفس الصبح هو انبساط ضوئه على الأُفق ودفعه الظلمة التي غشيته، وكأنّ الصبح موجود حيوي يغشاه السواد عند قبض النفس ويعلوه الضوء والانبساط عند التنفس قال الشاعر:

٣٢٤- حتى إذا الصبح لها تنفسا * وانجاب عنها ليلها وعسعسا

٣٢٥- هذا كلّه حول المقسم به، وأمّا المقسم عليه فهو قوله:(إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ)

326-
327- 1- لسان العرب: مادة كنس.
328-
329- (140)

٣٣٠- كَريم) .

٣٣١- الضمير في قوله: (إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَريم) يرجع إلى القرآن بدليل قوله: (لقولُ رَسُولٍ)والمراد من «رسول هو جبرئيل وكون القرآن قوله لا ينافي كونه قول اللّه إذ يكفي في النسبة أدنى مناسبة وهي انّه أنزله على قلب سيد المرسلين. قال سبحانه:(قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجِبْريلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّه) [1] وقال : (نَزلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمينُ * عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِين). [2]

٣٣٢- ثمّ إنّه سبحانه وصفه بصفات ست:

٣٣٣- ١. رسول: يدل على وساطته في نزول الوحي إلى النبي.

٣٣٤- ٢. كريم: عزيز بإعزاز اللّه.

٣٣٥- ٣. ذي قوة: «ذي قدرة وشدة بالغة، كما قال سبحانه: (عَلَّمَهُ شَديدُ القُوى * ذُو مِرّةٍ فَاسْتَوى) . [3]

٣٣٦- ٤.(عِنْدَ ذِي الْعَرش مَكين) : أي صاحب مكانة ومنزلة عند اللّه،وهي كونه مقرباً عند اللّه.

٣٣٧- ٥. مطاع:عند الملائكة فله أعوان يأمرهم وينهاهم.

٣٣٨- ٦. أمين: لا يخون بما أمر بتبليغه ما تحمّل من الوحي.

٣٣٩- وعطف على جواب القسم قوله: (وَما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُون) [٤] والمراد هو

340-
341- 1- البقرة:٩٧.
2- الشعراء:١٩٣- ١٩٤.
3- النجم:٥- ٦.
4- التكوير:٢٢.

342-

٣٤٤- نبيّنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وكأنّ صاحبه حلف بما حلف، للتأكيد على أمرين:

٣٤٥- أ: القرآن نزل به جبرئيل.

٣٤٦- ب: انّ محمّداً ليس بمجنون.

ثمّ إنّ الصلة بين المقسم به والمقسم عليه: هو انّالقرآن ـ المقسم عليه- حاله كحال هذه الكواكب الثوابت لديكم، فكما أنّ لهذه الكواكب، انقباض وجري، وتراجع، فهكذا حال الناس مع هذا القرآن فهم بين منقبض من سماع القرآن، وجار وسار مع هداه، ومدبر عن هديه إلى العصر الجاهلي.

٣٤٧- ثمّ إنّ القرآن أمام المستعدّين للهداية كالصبح في إسفاره، فهو لهم نور وهداية، كما أنّ للمدبرين عنه، كالليل المظلم،وهو عليهم عمى ،والله العالم.

٣٤٨- ثمّ إنّ في اتهام أمين الوحي بالخيانة، والنبي الأعظم بالجنون، دلالة واضحة على بلوغ القوم القسوة والشقاء حتى سوّغت لهم أنفسهم هذا العمل، فزين لهم الشيطان أعمالهم.

٣٤٩- وأخيراً نود الإشارة إلى كلمة قيمة لأحد علماء الفلك تكشف من خلالها عظمة تلك الكواكب والنجوم، حيث يقول: لا يستطيع المرء أن يرفع بصره نحو السماوات العلى إلاّويغضي إجلالاً ووقاراً، إذ يرى ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة، ويراقب سيرها في أفلاكها وتنقلها في أبراجها، وكلّنجم و أي كوكب، وكل سديم وأي سيار، إنّما هو دنياً قائمة بذاتها، أكبر من الأرض وما فيها وما عليها وما حولها. [١]

350-
351- ١ ـ الله والعلم الحديث:٢٥.

352-

٣٥٤- الفصل الحادي عشر

٣٥٥- القسم في سورة الانشقاق

٣٥٦- حلف سبحانه تبارك و تعالى بأُمور أربعة: الشفق ، والليل، وما وسق، و القمر، فقال: (فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ *وَاللَّيلِ وَما وَسَقَ * وَالقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقِ * فَما لَهُمْ لا يُوَ◌ْمِنُونَ *وَإِذا قُرِىَ◌ عَلَيْهِمُ الْقُرآنَ لا يَسْجُدُونَ) . (١)

٣٥٧- **تفسير الآيات**

٣٥٨- الشفق: هو الحمرة بين المغرب والعشاء الآخرة، والمراد منه في الآية الحمرة التي تبقى عند المغرب في الاَ◌ُفق، وقيل: البياض فيه.

٣٥٩- والوسق: جمع المتفرق، يقال: وسقت الشيء إذا جمعته، ويسمي القدر المعلوم من الحمل كحمل البعير وسقاً، فيكون المعنى والليل و ما جمع وضمّ ممّا كان منتشراً بالنهار، وذلك انّ الليل إذا أقبل آوى كلّ شيء إلى مأواه،وربما يقال: بمعنى «ما ساق» لاَنّ ظلمة الليل تسوق كلّ شيء إلى مسكنه.

٣٦٠- واتسق: من الاتساق بمعنى الاجتماع والتكامل فيكون المراد امتلاء القمر.

٣٦١- والطبق: الحال، والمراد لتركبنّ حالاً بعد حال، ومنزلاً بعد منزل،وأمراً بعد أمر.

362-

363- ١ ـ الانشقاق:١٦ـ ٢١.

364-

٣٦٦- وحاصل معنى الآيات:

٣٦٧- لا أُقسم بالشفق،وقد ذكرنا حديث «لا» و انّ معنى الجملة هو الحلف ومعناه أقسم بالحمرة التي تظهر في الاَ◌ُفق الغربي عند بداية الليل وما يظهر بعد الحمرة من بياض والمعروف في الشفق في لسان الاَ◌ُدباء هو الحمرة ولذلك يشبهون دماء الشهداء بالشفق غير انّه ربما يستعمل في البياض الطارىَ على الحمرة الذي هو آية ضعف الشفق ونهايته.

٣٦٨- وأقسم بالليل لما فيه من آثار و أسرار عظيمة، فلولا الليل لما كان هناك حياة كالضياء، فكلّ من الليل والنهار دعامتا الحياة، قال سبحانه: (قُلْأَرَأَيْتُمْ إِنْ جعلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمداً إِلى يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُون * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرمداً إِلى يَومِ القِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيلٍ تَسْكُنُون فيهِ أَفَلا تبصِرُون) . (١)

٣٦٩- ثمّ إنّه سبحانه أشار إلى ما يترتب على الليل والنهار من البركات، فقال: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُاللَّيلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون) (٢)ز، فخلق النهار لطلب الرزق والمعاش، كم البدن بالنوم فيه والسكن إليه وسيوافيك التفصيل في الفصول القادمة إن شاء اللّه.

٣٧٠- وأقسم بما وسق، أي بما جمع الليل، ولعلّه إشارة إلى عودة الإنسان والحيوانات والطيور إلى أوكارها عند حلول الليل، فيكون الليل سكناً عاماً للكائنات الحيّة.

371-
372- ١ ـ القصص: ٧١ـ ٧٢.
٢ ـ القصص: ٧٣.

373-

٣٧٥- حلف بالقمر عند اتساقه واكتماله في الليالي الأربع لما فيه من روعة وجمال، ولذلك يُشبَّه الجميل بالقمر، مضافاً إلى نوره الهادئ الرقيق الذي يغطّي سطح الأرض. وهو من الرقة واللطافة بمكان لا يكسر ظلمة الليل وفي الوقت نفسه ينير الطرق و الصحاري.

٣٧٦- فهذه أقسام أربعة بينها ترتب خاص، فانّالشفق أوّل الليل يطلع بعده القمر في حالة البدر، فهذه الموضوعات الأربع أُمور كونية يقع كلّ بعد الآخر حاكية عن عظمة الخالق.

٣٧٧- وأمّا المقسم عليه فهو قوله سبحانه: (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَق) وهي إشارة إلى المراحل التي يمرّ بها الإنسان في حياته وأوضحها هي الحياة الدنيوية ثمّ الموت ثمّالحياة البرزخية ثمّالانتقال إلى الآخرة ثمّ الحياة الأُخروية ثمّ الحساب والجزاء.

٣٧٨- وفي هذه الآية إلماع إلى ما تقدّم في الآية السادسة من هذه السورة، أعني قوله سبحانه:(يا أَيُّهَا الإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيه) . [1]

٣٧٩- والكدح بمعنى السعي والعناء يتضمن معنى السير.

٣٨٠- فالآية تشير إلى أنّ الحياة البشرية تتزامن مع التعب والعناء، ولكن الغاية منها هو لقاء اللّه سبحانه، وكأنّ هذا الكدح باق إلى حصول الغاية ، أي لقاء جزائه من ثواب وعقاب أو لقاء اللّه بالشهود.

٣٨١- وأمّا وجه الصلة وهو بيان انّ الأشواط التي يمرّ بها الإنسان أُمور مترتبة متعاقبة كما هو الحال في المقسم به أعني الشفق الذي يعقبه الليل الدامس ويليه ظهور القمر.

382-
383- ١ ـ الانشقاق: ٦.

384-

٣٨٦- توضيحه: انّ القرآن يحدّث عن أُمور متتابعة الوقوع وبذات تسلسل خاص فعندما تغيب الشمس يظهر الشفق معلناً عن بداية حلول الليل الذي تتجه الكائنات الحية إلى بيوتها وأوكارها ثمّ يخرج القمر بدراً تاماً، فإذا كان المقسم به ذات أُمور متسلسلة يأتي كلّ بعد الآخر فالطبقات التي يركبها الإنسان مثل المقسم به مترتبة متتالية فيبدأ بالدنيا ثمّ إلى عالم البرزخ ومنه إلى يوم القيامة ومنه إلى يوم الحساب.

٣٨٧- وبذلك يعلم وجه استعجابه سبحانه عن عدم إيمانهم، حيث قال: (فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُون) فانّ هذا النظام الرائع في الكون وحياة الإنسان من صباه إلى شبابه ومن ثمّ إلى هرمه لدليل واضح على أنّ عالم الخلقة يدبر تحت نظر خالق مدبر عارف بخصوصيات الكون.

يقول أحد علماء الطبيعة في هذا الصدد: إنّ جميع ما في الكون يشهد على وجود اللّه سبحانه ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم ـ نحن العلماء ـ بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فانّنا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي اللّه وعظمته. ذلك هو اللّه الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرى آياته في أنفسنا وفي كلّذرة من ذرات هذا الوجود. (١)

388-
١ ـ اللّه يتجلى في عصر العلم: ٢٦.
389-

390-

391- (146)

٣٩٢- **الفصل الثاني عشر**

٣٩٣- **القسم في سورة البروج**

٣٩٤- حلف سبحانه في سورة البروج بأُمور أربعة:

٣٩٥- أ: (السَّماءُذات البُرُوج) : المنازل.

٣٩٦- ب: (اليَوم المَوعُود) : القيامة.

٣٩٧- ج: شاهد

٣٩٨- د: مشهود.

٣٩٩- قال سبحانه:(وَالسَّماءِ ذاتِ البُروج *وَاليَومِ المَوعُودِ *وشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصحابُالاَُخدُودِ * النارِ ذاتِ الوَقُودِ *إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ *وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤمِنينَ شُهُودٌ * وَما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّأَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّهِ العَزيزِالحَمِيد). (١)

٤٠٠- فأقسم سبحانه بالعالم العلوي وهو السماء وما فيها من المنازل التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها ثمّ أقسم بأعظم الأيّام وأجلّها الذي هو مظهر ملكه وأمره ونهيه وثوابه وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه والحكم بينهم بعلمه وعدل.

ثم أقسم بكلّ شاهد ومشهود ـ إذا كان اللام للجنس ـ فيكون المراد كلّ مدرِك ومدرَك وراع ومرعي، والمصداق البارز له هو النبيالذي سمّي شاهداً كما سيوافيك، كما أنّ المصداق البارز للمشهود هو يوم القيامة، فلنرجع إلى تفسير الآيات.

401-
١ ـ البروج: ١ ـ ٨.
402-

403-

-٤٠٥ **تفسير الآيات**

-٤٠٦ أمّا السماء: فكلّ شيء علاك فهو سماء، قال الشاعر في وصف فرسه:

-٤٠٧ واحمر كالديباج أمّا سماوَه * فريّاً وأمّا أرضه فمحول

-٤٠٨ وقال بعضهم كلّ سماء بالإِضافة إلى ما دونها فسماء، وبالإِضافة إلى ما فوقها فأرض وسمي المطر سماءً لخروجه منها.

-٤٠٩ وأمّا البروج واحدها برج ويطلق على الأمر الظاهر وغلب استعماله في القصر العالي لظهوره على الناظرين، ويسمّى البناء المعمول على سور البلد للدفاع برجاً، والمراد هنا مواضع الكواكب من السماء.

-٤١٠ وربما يفسر بالمنازل الاثنى عشر للقمر، لأنّ القمر يصير في كلّبرج يومين وثلث يوم، وذلك ثمانية وعشرون يوماً، ثمّ يستتر ليلتين ثمّ يظهر.

-٤١١ وربما يفسر بمنازل الشمس في الشمال والجنوب، ولكن الأولى ما ذكرناه منازل النجوم على وجه الإطلاق.

-٤١٢ واليوم الموعود عطف على السماء وهو يوم القيامة الذي وعد اللّه سبحانه أن يجمع فيه الناس ويوم الفصل والجزاء الذي وعد اللّه به على ألسنة رسله وفيه يتفرد ربّنا بالملك والحكم.

-٤١٣ وقد وعد اللّه سبحانه به في القرآن الكريم غير مرّة وقال:

-٤١٤ (وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين) . [١]

415-
416- 1- يونس:٤٨.
417-

-٤١٩ وقال: (أَلا إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرهُمْ لا يَعْلَمُون) . [١]

-٤٢٠ وقال تعالى: (وَكَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّوَعْدَ اللّهِ حَقّ) . [٢]

-٤٢١ إلى غير ذلك من الآيات التي سمّى اللّه سبحانه فيها ذلك اليوم بوعد اللّه.

-٤٢٢ وشاهد ومشهود، اللفظان معطوفان على السماء والجميع قسم بعد قسم، وأمّا ما هو المقصود؟ فالظاهر انّ الشاهد هو من عاين الأشياء وحضرها،وأوضحه مصداقاً هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنّه سبحانه وصفه بكونه شاهداً، قال:(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَداعِياً إِلى اللّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنيراً) . [٣]

-٤٢٣ نعم تفسيره بالنبي الخاتم (صلى الله عليه وآله وسلم) من باب الجري والتطبيق على أفضل المصاديق وإلاّ فله معنى أوسع، يقول سبحانه: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيبِ وَالشَّهادةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُون) [٤] فقد عدّ المؤمنين شهوداً على الأعمال، فإنّ الغاية من الرؤية هو الشهود.

٤٢٤- وتدل الآيات على أنّ نبي كلّأُمّة شاهد على أُمّته، قال سبحانه:(وَإِنْ مِنْ أَهْلِالكِتابِ إِلّالَيُوَْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَومَ القِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً) . (٥)

٤٢٥- وأمّا المشهود فالمراد منه يوم القيامة، لأنّه من صفات يومها، قال سبحانه:

426-
427- 1- يونس:٥٥.
2- الكهف:٢١.
3- الأحزاب:٤٥.
4- التوبة:١٠٥.
5- النساء:١٥٩.
428-

٤٣٠- (ذلِكَ يَومٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاسُ وَذلِكَ يَومٌ مَشْهُود) (١) والمراد به (ذلك يوم مجموع له الناس) أي يجمع فيه الناس كلّهم الأوّلون والآخرون منهم للجزاء والحساب والهاء في له راجعة إلى اليوم (وَذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُود) أي يشهده الخلائق كلّهم من الجن والإنس وأهل السماء وأهل الأرض أي يحضره ولا يوصف بهذه الصفة يوم سواه وفي هذا دلالة على إثبات المعاد وحشر الخلق. (٢)

٤٣١- هذا كلّه حول المقسم به، وأمّا المقسم عليه فيحتمل أن يكون أحد أمرين:

٤٣٢- أ: (قُتِلَ أَصحابُالاَُخْدُود) وفسره بقوله:(النّارِ ذات الوقُود) أي أصحاب الاَُخدود هم أصحاب النّار التي لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهيبها، ويكون حريقها عظيماً، ولهيبها متطايراً.

٤٣٣- ثمّأشار إلى وصف آخر لهم(إِذْ هُمْ عَلَيها قُعُود) أي أحرقوا المؤمنين بالنار وهم قاعدون حولها يشرفون عليهم وهم يعذبون بها ويوضحه قوله في الآية اللاحقة: (وَهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُوَْمِنِينَ شُهُود) أي أُولئك الجبابرة الذين أحرقوا المؤمنين كانوا حضوراً عند تعذيبهم يشاهدون ما يُفعل بهم، وفي هذا إيماء إلى قسوة قلوبهم، كما فيه إيماء إلى قوة اصطبار المؤمنين وشدّة جلدهم ورباطة جأشهم.

٤٣٤- وأمّا الصلة بين ما حلف به من السماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود وجواب القسم فهي انّه سبحانه حلف بالسماء ذات البروج والبروج آية الدفاع حيث كان أهل البلد يدافعون من البروج المبنية على سور البلد عن بلدهم، قال سبحانه: (وَلَقَدْجَعَلْنا فِي السَّماءِبُرُوجاً وَزَيَّنّاها لِلنّاظرين *وَحَفِظْناها مِنْ كُلّ

435-
436- 1- هود:١٠٣.
2- مجمع البيان:٥|١٩١.
437-

٤٣٩- شَيطانٍ رَجِيم) . (١)

٤٤٠- فحلف سبحانه بالسماء ذات البروج في المقام مبيناً بأنّ الله الذي كما يدفع بالبروج عن السماء كيد الشياطين كذلك يدفع عن إيمان المؤمنين كيد الشياطين وأوليائهم من الكافرين.

٤٤١- ثمّ أقسم باليوم الموعود الذي يجزي فيها الناس بأعمالهم فهو يجزي أصحاب الأُخدود بأعمالهم، وأقسم بالشاهد الذي يشاهد أعمال الآخرين، وأقسم بمشهود أي كل ما يشهده الشاهد وهو انّه سبحانه تبارك وتعالى يعاين أعمالهم ويشاهدها.

٤٤٢- ويمكن أن يكون جواب القسم، قوله سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيق *إِنَّ الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوزُ الكَبير) .[٢]

٤٤٣- فالله سبحانه يوعد الكفّار ويعد المؤمنين.

٤٤٤- وأمّا وجه الصلة فواضح أيضاً بالنسبة إلى ما ذكرنا في الوجه الأوّل، ويحتمل أن يكون الجواب قوله: (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيد *إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيد)[٣]

٤٤٥- والمناسبة تلك المناسبة فلا نطيل.

٤٤٦- ويحتمل أن يكون الجواب محذوفاً يدل عليه الآيات المتقدمة، والمحذوف كالتالي:

٤٤٧- إيعاد الفاتنين ووعد المؤمنين وهكذا.

448-

449- ١- الحجر:١٦-١٧.
٢- البروج:١٠-١١.
٣- البروج: ١٢-١٣.

450-

451- (151)

٤٥٢- الفصل الثالث عشر

٤٥٣- القسم في سورة الطارق

٤٥٤- حلف سبحانه بأمرين: بالسماء والطارق، ثمّ فسر الطارق بالنجم الثاقب، حلف بهما بغية دعوة الناس إلى الإذعان بأنّ لكلّ نفس حافظ.

٤٥٥- قال سبحانه: (وَالسَّماءِ وَالطّارِقِ *وَما أَدْراكَ مَا الطّارِقُ *النَّجْمُ الثاقِبُ * إِنْكُلُّ نَفْسٍ لَمّا عَلَيْها حافِظ) .[١]

٤٥٦- أمّا السماء فقد مرّ البحث فيه، والطارق من الطرق ويسمّى السبيل طريقاً، لأنّه يطرق بالأرجل أي يضرب، لكن خصّ في العرف بالآتي ليلاً، فقيل انّه طرق أهله طروقاً، وعبر عن النجم بالطارق لاختصاص ظهوره بالليل.

٤٥٧- النجم الثاقب والثاقب الشيء الذي يثقب بنوره وإصابته مايقع عليه، قال سبحانه: (فأَتْبَعهُشِهابٌ ثاقِب) .[٢]

٤٥٨- (إنْكُلُّ نَفْسٍ لَمّا عَلَيْها حافِظ) فلفظة (لما) بمعنى إلاّ نظير قوله سبحانه:(وإنَّ كُلاً لَمّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعمالَهُم) (٣) ونظيره قولك: «سألتك باللّه لما فعلت».

459-
460- ١- الطارق:١ـ ٤.
٢- الصافات:١٠.
٣- هود:١١١.

461-
462- (152)

٤٦٣- والمراد من حافظ هم الموكلون على كتابة أعمال الإنسان حسنها وسيئها، يحاسب عليها يوم القيامة ويجزى بها فالحافظ هو الملك والمحفوظ هو العمل، قال تعالى:(وإنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ * كِراماً كاتِبِين * يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُون) (١) ويحتمل أن يراد من حافظ هو القوة الحافظة للإنسان من الموت وفساد البدن ولعلّه إليه يرشد قوله سبحانه: (وَهُوَ القاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُعَلَيْكُمْ حَفَظَة) . (٢)

٤٦٤- والقوى الظاهرية والمادية والمعنوية التي هي من جنود ربنا والتي وكّلت لحفظ الإنسان من الشر إلى أن ينقضي عمره، هم الحفظة، ولكن المعنى الأوّل هو الأنسب.

٤٦٥- بقي هنا أمران:

٤٦٦- الأوّل: انّ المراد من النجم الثاقب هو كوكب زحل، فانّه من أبعد النجوم في مجموعتنا الشمسية التي يمكن روَيتها بالعين المجردة وقيل لزحل عشرة أقمار يمكن روَية ثمانية منها بالناظور العادي.

٤٦٧- ولا يمكن روَية الآخرين إلاّ بالنواظير الكبيرة، والظاهر انّ المراد مطلق النجم الذي يثقب ضوءه وإن كان زحل من أظهر مصاديقه.

٤٦٨- وأمّا المقسم عليه فهو قوله:(إنْ كُل نَفْسٍ لَمّا عَليها حافِظ) .

٤٦٩- وأمّا الصلة بينهما بالنحو التالي:

٤٧٠- هو انّ السماء العالية والنجوم التي تتحرك في مدارات منظمة دليل النظم والحساب الدقيق، فليعلم الإنسان بأنّ أعماله أيضاً تخضع للحساب الدقيق، فانّ

471-
472- 1 ١٢ -١٠ : الانفطار.
2- ٦١ :الأنعام.

473-
474- (153)

٤٧٥- هناك من يحفظ أعماله ويسجّلها إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشر، وانّها لمسوَولية عظيمة يحملها الإنسان، إذ ما من أحد إلاّ وهو مراقب، تكتب عليه كلّ أعماله من المهد إلى

اللحد، فليس من شيء يضيع في هذه الدنيا أبداً. هذا إذا قلنا بأنّ المراد من حافظ هو حافظ الأعمال، وأمّا إذا فسرت من يحفظ الإنسان من الحوادث والمهالك، فالصلة بالنحو التالي:

٤٧٦- وهو انّ للنفوس رقيباً يحفظها ويدبر شوَونها في جميع أطوار وجودها حتى ينتهي أجلها، كما أنّ للسماء مدبراً لشوَونها بما تحتويه من أنظمة رائعة ومعقدة، فالفضاء الكوني فسيح جداً تتحرك فيه كواكب لا حصر لها، بسرعة خارقة، بعضها يواصل رحلته وحده، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى، ومنها ما يتحرك في شكل مجموعات، والكواكب على كثرتها يواصل كلّ واحد منها سفره على بُعد عظيم يفصله عن الكواكب الأُخرى.

٤٧٧- إنّ هذا الكون يتألف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم تسمّى مجاميع النجوم، وكلّها تتحرك دائماً وتدور في نظام رائع.

٤٧٨- ومع هذا الدوران تجري حركة أُخرى وهي انّ هذا الكون يتسع من كلّجوانبه، كالبالون المتخذ من المطاط، وجميع النجوم تبتعد في كلّ ثانية بسرعة فائقة عن مكانها، هذه الحركة المدهشة تحدث طبقاً لنظام وقواعد محكمة بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ولا يحدث اختلاف في سرعتها. [1]

479-

٤٨٠- 1-الإسلام يتحدى: ٥٨.

481- (154)

٤٨٢- الفصل الرابع عشر

٤٨٣- القسم في سورة الفجر

٤٨٤- حلف سبحانه في سورة الفجر بأُمور خمسة:

٤٨٥- ١. الفجر، ٢. ليال عشر، ٣. الشفع، ٤. الوتر، ٥. الليل إذا يسر

٤٨٦- وقال: (وَالْفَجْرِ * وَلَيالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفعِ وَالْوَتْرِ * واللَّيلِ إِذا يَسْرِ * هَلْ في ذلِكَ قَسَمٌ لِذي حِجْر). [1]

٤٨٧- تفسير الآيات

٤٨٨- اختلف المفسرون في تفسير هذه الأقسام إلى أقوال كثيرة، غير انّ تفسير القرآن بالقرآن يدفعنا إلى أن نفسره بما ورد في سائر الآيات.

٤٨٩- أمّا الفجر: فهو في اللغة، كما قال الراغب: شق الشيء شقاً، قال سبحانه: (وَفَجَّرنا الأَرض عُيُوناً)وقال:(وَفجّرنا خلالها نَهْراً)ومنه قيل للصبح، الفجر لكونه يفجر الليل، وقد استعمل الفجر بصورة المصدر في فجر الليل، قال: (أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْس إِلى غَسَقِ اللَّيل وَقُرآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً) [2]

٤٩٠- ، وقال سبحانه: (حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِالأَسْوَد مِنَ الْفَجْرِثُمَّ)

491-

492- 1- الفجر:١- ٥.

2- الإسراء:٧٨.

٤٩٥- أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيل) [١] وقال سبحانه: (سَلامٌ هِيَ حَتّى مَطْلَعِالْفَجْ)[٢]) .

٤٩٦- وعلى ضوء هذا فلو كان اللام للجنس، فهو محمول على مطلق الفجر، أعني: انفجار الصبح الصادق، وإن كان مشيراً إلى فجر ليل خاص فهو يتبع القرينة، ولعلّ المراد فجر الليلة العاشرة من ذي الحجة الحرام.

٤٩٧- (وليال عشر) فقد اختلف المفسرون في تفسير الليالي العشر، فذكروا احتمالات ليس لها دليل.

٤٩٨- أ: الليالي العشر من أوّل ذي الحجة إلى عاشرها، والتنكير للتفخيم.

٤٩٩- ب: الليالي العشر من أوّل شهر محرم الحرام.

٥٠٠- ج: العشر الأواخر من شهر رمضان وكلّمحتمل، ولعل الأوّل أرجح.

٥٠١- وأمّا الشفع: فهو لغة ضمّ الشيء إلى مثله،فلو قيل للزوج شفع، لأجل انّه يضم إليه مثله، والمراد منه هو الزوج بقرينة قوله والوتر، وقد اختلفت كلمتهم فيما هو المراد من الشفع والوتر.

٥٠٢- ١. الشفع هو يوم النفر ، والوتر يوم عرفة وإنّما أقسم اللّه بهما لشرفهما.

٥٠٣- ٢. الشفع يومان بعد النحر ، والوتر هو اليوم الثالث.

٥٠٤- ٣. الوتر ما كان وتراً من الصلوات كالمغرب والشفع ما كان شفعاً منها.

٥٠٥- إلى غير ذلك من الأقوال التي أنهاها الرازي إلى عشرين وجهاً، ويحتمل أن يكون المراد من الوتر هو اللّه سبحانه، والشفع سائر الموجودات.

506-
507- ١- البقرة:١٨٧.
٢- القدر:٥.

٥١٠- (وَاللَّيل إذا يَسر) : أمّا الليل فمعلوم، وأمّا قوله يسر ، فهو من سرى يسري فحذف الياء لأجل توحيد فواصل الآيات، ويستعمل الفعل في السير في الليل، كما في قوله سبحانه: (سُبْحانَ الّذي أَسرى بِعَبْدِهِ لَيلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرامِ إِلى الْمَسْجِدِ الأَقصى) [١] ،فالليل ظرف والساري غيره، ولكن الآية نسبت الفعل إلى نفس الليل فكأنّ الليل موجود حقيقي له سير نحو الأمام فهو يسير إلى جانب النور، فاللّه سبحانه حلف بالظلام المتحرك الذي سينجلي إلى نور النهار.

٥١١- مضافاً إلى ما في الليل من عظائم البركات التي لا تقوم الحياة إلاّبها.

٥١٢- هذا ما يرجع إلى مجموع الآية ونعود إلى الآيات بشكل آخر، فنقول: امّا الفجر فقد حلف به سبحانه بصورة أُخرى أيضاً، وقال: (وَالصُّبح إذا أَسْفَرَ) [٢]

٥١٣- وقال تبارك وتعالى: (وَالصُّبح إذا تَنَفَّس)[٣]، والمراد من الجميع واحد، فإنّ إسفار الصبح في الآية الأُولى هو طلوع الفجر الصادق، فكأنّ الصبح كان مستوراً بظلام الليل، فهو رفع الستار وأظهر وجهه، ولذلك استخدم كلمة أسفر يقال: أسفرت المرأة: إذا رفع حجابها.

٥١٤- ويعود سبب تعاقب الليل والنهار إلى دوران الأرض حول الشمس، فبسبب كرويّتها لا تضيئ الشمس سائر جهاتها في آن واحد بل تضيئ نصفها فقط ويبقى النصف الآخر مظلماً حتى يحاذي الشمس بدوران الأرض فيأخذ حظه من الاستنارة، وتتم الأرض هذه الدورة في أربعة وعشرين ساعة.

٥١٥- كما أنّ المراد من الآية الثانية أعني: (والصبح إذا تَنَفَّس) هو انتشار نوره،

516-
517- 1- الإسراء: ١.
2- المدثر: ٣٤.
3- التكوير: ١٨
518-

٥٢٠- فعبّر عنه بالتنفّس، فكأنّه موجود حي يبث ما في نفسه إلى الخارج، أمّا عظمة الفجر فواضحة، لأنّ الحياة رهن النور، وطلوع الفجر يثير بارقة الأمل في القلوب حيث تقوم كافة الكائنات الحية إلى العمل وطلب الرزق.

٥٢١- وأمّا الليالي العشر فهي عبارة عن الليالي التي تنزل فيها بركاته سبحانه إلى العباد، سواء فسرت بالليالي العشر الأُولى من ذي الحجّة أو الليالي العشر من آخر شهر رمضان. فالليل من نعمه سبحانه حيث جعله سكناً ولباساً للإنسان وقال:(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً)[١] كما جعله سكناً للكائنات الحية حيث ينفضون عن أنفسهم التعب والوصب، قال سبحانه: (فالِقُ الإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً). [٢]

٥٢٢- وأمّا الشفع والوتر، فقد جاء مبهماً وليس في القرآن ما يفسر به فينطبق على كلّ شفع ووتر، وبمعنى آخر يمكن أن يراد منه صحيفة الوجود من وتره كالله سبحانه وشفعه كسائر الموجودات.

٥٢٣- وأمّا قوله: (واللَّيل إذا يسر) أقسم بالليل إذا يمضي ظلامه، فلو دام الليل دون أن ينجلي لزالت الحياة، يقول سبحانه:(قُلْ أَرَأَيْتُمْ ان جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْل سَرْمداً إِلى يَومِ القِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللّهِيَأْتِيكُمْ بِضياءٍ أَفَلا تسْمَعُون) . [٣]

٥٢٤- فتبين مما سبق منزلة المقسم به في هذه الآيات وانّها تتمتع بالكرامة والعظمة. وأمّا المقسم عليه فيحتمل وجهين:

٥٢٥- أحدهما: انّه عبارة عن قوله سبحانه: (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرصاد).[٤]

526-

٥٢٧- 1-النبأ:١٠.
2-الأنعام:٩٦.
3-القصص:٧١.
4-الفجر:١٤.

528-

529- (158)

٥٣٠- ثانيهما: انّ المقسم عليه محذوف يعلم من الآيات التي أعقبت هذه الاقسام، قال سبحانه: (أَلَمْ تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ * إِرَمَ ذاتِ الْعِماد * الَّتي لَمْ يُخْلَق مِثْلُها فِي البِلاد * وَثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخرَ بِالواد * وَفِرْعَونَ ذِي الأَوتاد * الَّذينَ طَغَوْا فِي البِلاد * فَأَكْثَروا فِيهَا الفَسادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبّكَ سَوطَ عَذابٍ * إِنَّ رَبّكَ لَبِالْمِرصاد) .[١]

٥٣١- فالمفهوم من هذه الآيات انّه سبحانه حلف بهذه الأقسام بغية الإيعاد بأنّه يعذب الكافرين والطاغين والعصاة كما عذب قوم عاد وثمود، فالإنسان العاقل يعتبر بما جرى على الأُمم الغابرة من إهلاك وتدمير.

٥٣٢- أمّا وجه الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فهو: انّ من كان ذا لبٍّ، علم أنّ ما أقسم الله به من هذه الأشياء فيه دلائل على قدرته وحكمته، فهو قادر على أن يكون بالمرصاد لأعمال عباده فلا يعزب عنه أحد ولا يفوته شيء من أعمالهم لأنّه يسمع ويرى جميع أقوالهم وأفعالهم خصوصاً بالنظر إلى ما أدَّب به قوم عاد وثمود مع ما كان لهم من القوة والمنعة.

533-

٥٣٤- 1-الفجر:٦- ١٤.

535-

536- (159)

٥٣٧- الفصل الخامس عشر

٥٣٨- القسم في سورة البلد

٥٣٩- حلف سبحانه في سورة البلد بأُمور أربعة: البلد ، و من حلّ فيه ، ووالد ، وما ولد، وقد حلف بالثاني كناية وبما سواه تصريحاً، قال سبحانه:(لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذا البَلَدِ * وَوالِدٍ وَما وَلَدَ * لَقَدْخَلَقْنَا الإِنْسان في كَبَد).[١]

٥٤٠- تفسير الآيات

٥٤١- حلف فيها سبحانه بمكة المكرمة كما حلف بالنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الحالّ فيها ، ومقتضى التناسب بين الأقسام أن يكون المراد من الوالد والولد، هو إبراهيم وإسماعيل اللذان بنيا البيت، ودعا إبراهيم كلّراكب وراحل إلى زيارته.

٥٤٢- أمّا الحلف الأوّل فواضح، لأنّ البيت مركز للتوحيد ولعبادة الله سبحانه، وهو مطاف أنبياء الله العظام وأوليائه، فقد بلغ من المكانة مرتبة صلح أن يحلف به سبحانه، كيف وقد قال سبحانه في حق البيت: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنّاسِلَلَّذي بِبَكَّةَ مُباركاً وهُدًى لِلْعالَمين).[٢]

٥٤٣- قال سبحانه: (وَإِذْجَعَلْنَا الْبَيْت مثابَةً لِلنّاسِ وَأَمْناً) [٣] وقال: (جَعَلَ اللّهُ

544-

٥٤٥- 1-البلد:١- ٤.
2-آل عمران:٩٦.
3-البقرة:١٢٥.

546-

547- (160)

٥٤٨- الْكَعْبَة الْبَيْتَ الحَرامَ قِياماً لِلنّاسِ) [١] فلو حلف بالبلد، فإنّما لأجل احتضانه أشرف بيوت اللّه، ويزيد على شرفه انّ النبي الخاتم، قطين هذا البلد، ونزيله، فزاده شرفاً على شرف،والحل هو الساكن.

٥٤٩- وبذلك يعلم أنّ ذكره (صلى الله عليه وآله وسلم) بهذا النحو هو في الواقع حلف ضمنيّ به.

٥٥٠- وهذا التفسير مبني على أنّ المراد من الحلّ هو نزول النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بهذا البلد، ولكن ربما يفسر بالمستحلّ، أي من استحلت حرمته وهتكت كرامته، وعند ذلك ينقلب معنى الآية إلى شيء آخر، ويكون معناها هو: لا أُقسم بهذا البلد المقدّس حال انّك مهتوك الحرمة والكرامة، ويكون توبيخاً وتقريعاً لكفّار قريش حيث إنّهم يحترمون البلد، ولا يحترمون من حلَّ فيه أشرف الخليقة.

٥٥١- وعلى ذلك فيكون «لا» في (لا أُقسمُ) بمعنى النفي لا الزيادة، ولا بمعنى نفي شيء آخر على ما قدمناه في تفسير سورة الواقعة.

٥٥٢- يقول الزمخشري: أقسم سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أنّ الإنسان خلق مغموراً في مكابدة المشاق والشدائد، واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذا الْبَلَد) يعني: ومن المكابدة أنّمثلك على عظم حرمتك يُستحل بهذا البلد الحرام، كما يُستحلّ الصيد في غير الحرم، عن شرحبيل يحرّمون أن يقتلوا بها صيداً ويعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك، وفيه تثبيت من رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة وتعجيب من حالهم في عداوته. [٢]

٥٥٣- وقال الطبرسي: معناه لا أقسم بهذا البلد وأنت حلّفيه منتهك الحرمة

554-

٥٥٥- 1-المائدة:٩٧.
2-الكشاف:٣|٣٣٨.

556-

557- (161)

٥٥٨- مستباح العرض لا تحترم، فلم يبق للبلد حرمة حيث هتكت حرمتك ، قال وهو المروي عن أبي مسلم كما روي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) ، قال: كانت قريش تعظم البلد وتستحل محمداً فيه، فقال: لا أُقسم بهذا البلد وأنت حلّ بهذا البلد يريد انّهم استحلوك

فكذبوك وشتموك، وكان لا يأخذ الرجل منهم قاتل أبيه فيه ويتقلدون لحاء شجر الحرم فيأمنون بتقليده إيّاه فاستحلوا من رسول اللّه مالم يستحلوا من غيره فعاب اللّه ذلك عليهم. [1]

٥٥٩- ثمّ حلف بوالد وما ولد وللمفسرين في تفسيره أقوال أوضحها بأنّ الوالد هو إبراهيم الخليل والولد إسماعيل الذبيح وهذا يتناسب مع القسم بمكة، لأنّ الوالد والولد هما رفعا قواعد البيت.

٥٦٠- وأمّا تفسيرها بآدم وذريته، أو آدم والأنبياء، أو آدم وكلّ من ولد عبر القرون تفسير بعيد.

٥٦١- هذا كلّه حول القسم، وأمّا المقسم عليه، فقوله سبحانه:(لَقَدْخَلَقْنَا الإِنْسانَ في كَبَد). [2]

٥٦٢- والكبد في اللغة شدّة الأمر ومنه تكبد البلد إذا غلظ واشتد، ومنه الكبد للإِنسان ،لأنّه دم يغلظ ويشتد، وتكبّد البلد: إذا صار كالكبد، ومعنى الآية واضح، فانّ الإِنسان منذ خلق إلى أن أدرج في أكفانه لم يزل يكابد أمراً فأمراً، فمن حمله وولادته ورضاعه وفطامه وشبابه وكماله وهرمه كلّذلك محفوف بالتعب والوصب، يقول الشاعر:

563-

٥٦٤- ١- مجمع البيان:٥|٤٩٣.
٢- البلد:٤.

565-

566- (162)

٥٦٧- يا خاطب الدنيا الدَّنيّ * ـة إنّها شَـرَكُ الرَّدى

٥٦٨- دارٌ متى ما أضحكت * في يومها أبكت غدا

٥٦٩- وإذا أظلَّ سحابها * لم ينتقع منه صدى

٥٧٠- غاراتُها ما تنقضي * وأسيرها لا يُفتدى [1]

٥٧١- ويرثي التهامي ولده في قصيدة معروفة مبتدئاً بوصف الدنيا، ويقول:

٥٧٢- حكم المنية في البرية جار * ما هذه الدنيا بدار قرار

٥٧٣- بينا يُرى الإِنسان فيها مخبراً * حتى يرى خبراً من الاخبار

٥٧٤- طُبعتْ على كدر وأنت تريدها * صفوا من الاقدار والاكدار

٥٧٥- ومكلِّف الأيام ضدَّ طباعها * متطلب في الماء جذوةَ نار

٥٧٦- وإذا رجوت المستحيل فإنّما * تبني الرجاء على شفير هار

٥٧٧- فالعيش نوم والمنية يقظة * والمرء بينهما خيال سار [2]

578-

٥٧٩- 1-مقامات الحريري:٢٢٥، المقامة الثالثة والعشرون الشعرية.
2-شهداء الفضيلة: ٢٦.

580-

٥٨٢- رحم الله شيخنا الوالد آية الله الشيخ محمد حسين السبحاني (١٢٩٩-١٣٩٢هـ) فقد كان في أواخر أيام عمره طريح الفراش فزارته ابنته «فاطمة» وكنت أرافقها فسألناه عن حاله فأنشدَ بيتاً من لامية العجم للطغرائي وقال:

٥٨٣- ترجو البقاء بدار لا ثبات لها * فهل سمعت بظل غير منتقل

٥٨٤- أمّا الكلام حول الدنيا ومصاعبها وما احتضنت من التعب والوصب، فيكفي في ذلك قراءة خطب الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) ، ننقل منها هذه الشذرات: «أمّا بعد، فإنّي أُحذركم الدنيا، فإنّها حلوة خضرة، حفّت بالشهوات، وتحبّبت بالعاجلة. وراقت بالقليل، وتحلّت بالآمال، وتزيّنت بالغرور، لا تدوم حبرتها، ولا توَمن فجعتها، غرّارة ضرّارة، حائلة زائلة، نافدة بائدة، أكّالة غوّالة، لا تعدو ـ إذا تناهت إلى أُمنية أهل الرغبة فيها والرضاء(الرضى) بها- أن تكون كما قال الله تعالى سبحانه: (كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْض فَأَصْبَحَهَشيماً تَذروهُ الرياح وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ مُقتدراً) [1] لم يكن امروَءٌ ومنها في حبرة إلاّ أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق في سرّائها بطناً، إلاّمنحته من ضرّائها ظهراً.

٥٨٥- [2] وأقال (عليه السلام) في خطبة أُخرى:

٥٨٦- «ألا وإنّ الدنيا قد تصرَّمت، وآذنت بانقضاء، وتنكَّر معروفها، وأدبرت حذّاء، فهي تحفز بالفناء سكّانها(ساكنيها)، وتحدو بالموت جيرانها، وقد أمرّ فيها ما كان حلواً، وكدر منها ما كان صفواً، فلم يبق (تبق) منها إلاّسملة كسملة الإداوة أو جرعة كجرعة المقلة، لو تمزّزها الصّديان لم ينقع. فأزمعوا عباد الله الرحيل عن

587-

٥٨٨- 1-الكهف:٤٥.
2-نهج البلاغة، الخطبة: ١١١.

589-

590- (164)

٥٩١- هذه الدار المقدور على أهلها الزّوال، ولا يغلبنّكم فيها الأمل، ولا يطولنّ عليكم فيها الأمد». [1]

٥٩٢- يقول العلاّمة الطباطبائي: فليس يقصد نعمة من نعم الدنيا إلاّخالصة في طيبها، محضة في هنائها، ولا ينال شيئاً منها إلاّ مشوبة بما ينغص العيش مقرونة بمقاساة ومكابدة، مضافاً إلى ما يصيبه من نوائب الدهر ويفاجئه من طوارق الحدثان. [2]

٥٩٣- وربّما ينظر الإنسان إلى من هو فوقه لا سيما الذين يتمتعون بالغنى والرفاه، فيخطر على باله أنّ حياة هوَلاء غيرمشوبة بالكد والتعب، ولكنّ هذا التصوّر غير صائب إذ أنّ تعبهم وكدَّهم أكثر بمراتب من الذين هم دونهم.

٥٩٤- وأمّا الصلة بين المقسم به(والد وما ولد) والمقسم عليه (لقد خلقنا الإنسان في كبد)، واضحة، إذ لم تزل حياة إبراهيم وولده مقرونة بالتعب والوصب، إذ ولد وقد أمضى صباه في الغاب خوفاً من بطش الجهاز الحاكم، وبعد ما خرج منها وله من العمر ١٣ سنة أخذ يكافح الوثنيين وعبّاد الأجرام السماوية، إلى ان حكم عليه بالرمي في النار والإحراق، فنجّاه الله سبحانه، فلم يجد بداً من مغادرة الوطن والهجرة إلى فلسطين ولم يزل بها حتى أُمر بإيداع زوجه وابنه في بيداء قاحلة لا ماء فيها ولا زرع، يحكي سبحانه تلك الحالة عن لسان إبراهيم (عليه السلام) ويقول: (رَبَّنا إِنّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتي بِوادٍغَيْر ذِي زَرْع عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرّمِ رَبَّنا لِيُقيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْأَفْئِدَةً مِنَ النّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ). [٣]

595-

٥٩٦- 1-نهج البلاغة، الخطبة: ٥٢.
2-الميزان: ٢٠|٢٩١.
3-إبراهيم: ٣٧.

597- (165)

٥٩٨- الفصل السادس عشر

٥٩٩- القسم في سورة الشمس

٦٠٠- حلف سبحانه تبارك و تعالى في سورة الشمس إحدى عشرة مرّة بتسعة أشياء. [١]

٦٠١- ١. الشمس، ٢. ضحى الشمس، ٣. القمر، ٤. النهار، ٥. الليل، ٦. السماء، ٧. وما بناها، ٨. الأرض، ٩. وما طحاها، ١٠. ونفس، ١١. وما سوّاها.

٦٠٢- وبما أنّ المراد من الموصول في الجمل الثلاث الأخيرة هو الله سبحانه فيكون المقسم به تسعة، والأقسام إحدى عشرة ، قال سبحانه: (وَالشَّمْسِ وَضُحاها * وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها * وَالنَّهار إِذا جَلاّها * وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها * وَالسَّماء وَما بَناها * وَالأَرْضِ وَما طَحاها * وَنَفْسٍ وَما سَوّاها * فأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها * قَدْأَفْلَحَ مَنْ زَكّاها * وَقَدْخابَمَنْدَسّاها). [٢]

٦٠٣- تفسير الآيات

٦٠٤- ١، ٢. (الشمس وضحاها) ، حلف بالنيّر الكبير الذي له دور هام في استقرار الحياة على الأرض وهو مصدر للنور والحرارة، إلى غير ذلك من

605-

٦٠٦- 1-وما في تفسير الرازي من أنّه تعالى قد أقسم بسبعة أشياء غير صحيح ولعلّهأسقط قوله :(وضحاها) والموصول كلّه عن القسم. «انظر تفسير الفخر الرازي: ٣١|١٨٩.»
2-الشمس: ١-١٠.

607-

608- (166)

٦٠٩- المعطيات، وهو سلطان منظومتنا، وله حركة انتقالية وحركة وضعية، ويعجز البيان واللسان عن بيان ماله من الأهمية، ويكفيك هذا الأثر انّه ينتج في كلّدقيقة ٢٤٠ مليون

وحدة طاقة، ولم تزل ترفد بهذا العطاء على الرغم من أنّ عمرها يتجاوز الخمسة آلاف ميليون سنة.

٦١٠- هذه الشمس التي ما زالت أسرارها في الخفاء، هي محور نظامنا السيّاري ومصدر حياتنا أيضاً، هذه الشمس التي كلّ ما يكتشف عنها يزيدها غموضاً، ولم تزح يد العلم بعد النقاب عن كلّ ما يجب أن نعلمه عن الشمس، هذه الشمس التي تفقد أربعة ملايين طن من وزنها في الثانية من احتراقها، ولم تزل تجدّد وزنها وحجمها، والتي تبعث إلى العالم الخارجي طاقة تعادل خمسة آلاف بليون قنبلة ذرية في كلّ ثانية، وهي آية من آيات الخالق، وإن هي إلاّ آية صغيرة تزخر السماء بملايين من النجوم أضخم منها حجماً وأكبر سرعة وأكثر تألّقاً.[1]

٦١١- كما حلف بضحى الشمس، وهو انبساط الشمس وامتداد النهار، والأولى أن يقال الضحى هو انبساط نورها وضوئها، فانّ لضوئها أثراً خاصاً في نشوء الحياة وبقائها والفتك بالأمراض وزوالها.

٦١٢- ٣. (وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها) حلف بالقمر إذا تلا الشمس في الليالي البيض من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة منه، وقت امتلائه أو قربه من الامتلاء حين يضيئ الليل كلّه من غروب الشمس إلى الفجر.

٦١٣- وفي الحقيقة هذا حلف بالقمر وضوئه فانّ ضوء القمر إنّما ينتشر ، إذا تلا الشمس وظهر بعد غروبها.

٦١٤- وربما يقال بأنّ المراد تبعية القمر للشمس في تمام الشهر، لأنّ نوره مأخوذ

615-

٦١٦- 1-الله والعلم الحديث:٣٠.

617-

618- (167)

٦١٩- من نور الشمس فهو يتبعها في جميع الأزمان، ولكن المعنى الأوّل هو اللائح.

٦٢٠- ٤.(وَالنَّهارِ إِذا جَلاّها) التجلي من الجلو بمعنى الكشف الظاهر، يقال: أجليت القوم عن منازلهم فجلوا عنها أي أبرزتهم عنها، وعلى ذلك فحلف سبحانه بالنهار إذا جلا الأرض وأظهرها، والضمير يعود إلى الأرض المفهوم من سياق الآية، ويحتمل أن يرجع الضمير إلى الشمس، فانّ النهار كلّما كان أجلى ظهوراً كانت الشمس أكمل وضوحاً، أي احلف بالنهار إذا جلّى الشمس وأظهرها.

٦٢١- ولكن المعنى الأوّل هو الظاهر، لأنّ الشمس هي المظهرة للنهار، دون العكس.

٦٢٢- ٥.(وَاللَّيلِ إِذا يَغْشاها) حلف بالليل إذا غطّى الأرض وسترها في مقابل الشمس إذاجلا الأرض وأظهرها، وربما يتصوّر أنّ الضمير يرجع إلى الشمس، فحلف سبحانه

بالليل إذا غطّى الشمس وهو بعيد، فانّ الليل أدون من أن يغطي الشمس وإنّما يغطي الأرض و من عليها.

٦٢٣- والأفعال الواردة في الآيات السابقة كلها وردت بصيغة الماضي، (تلاها ، جلاّها) وإلاّ في هذه الآية فقد وردت بصورة المضارع (يغشاها) فما هو الوجه؟

٦٢٤- ذكر السيد الطباطبائي وجهاً استحسانياً وقال: والتعبير عن غشيان الليل الأرض بالمضارع بخلاف تجلية النهار لها حيث قيل: (وَالنَّهار إذا جَلاّها * وَاللَّيل إذا يَغْشاها) للدلالة على الحال، ليكون فيه إيماء إلى غشيان الفجور الأرضَ في الزمن الحاضر الذي هو أوائل ظهور الدعوة الإسلامية. [1]

625-

٦٢٦- 1-الميزان:٢٠|٢٩٧.

627-

628- (168)

٦٢٩- ٦، ٧. (وَالسَّماء وَمابَناها) ، فحلف بالسماء وبانيها، بناء على أنّ «ما» موصولة، وليست مصدرية، بقرينة الآية التالية حيث يحلف فيها بالنفس وخالقها ومسوِّيها، وغلبة الاستعمال على «ما» الموصولة في غير العاقل لم يمنع من استعمالها في العاقل أيضاً، قال سبحانه: (فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَالنِّساءِ). [1]

٦٣٠- ولعلّ استعمال «ما» مكان «من» لأجل أنّ الخطاب كان موجهاً إلى قوم لا يعرفون اللّه بجليل صفاته، وكان القصد منه أن ينزلوا في هذا الكون منزلة من يطلب للأثر موَثراً فينتقل من ذلك إلى معرفة اللّه تعالى، فعبّر عن نفسه بلفظة «ما» التي هي الغاية في الإبهام. [2]

٦٣١- وفي ذكر السماء وبنيانها إلماع إلى أنّه يمتنع أن يكون رهن الصدفة، بل لا يتحقق إلاّبصانع حكيم قد أحكم وضعها وأجاد بناءها، خصوصاً بناء الكواكب التي ترتبط أجزاوَها البعض بالبعض، ولولا هذا الترابط لما كان لها تماسك.

٦٣٢- ٨، ٩ . (وَالأَرْض وَما طَحاها) حلف بالأرض وطاحيها والطحو كالدحو، وهو البسط، وإبدال الطاء من الدال جائز، والمعنى وسَّعها.

٦٣٣- وقد أشار إلى وصف الأرض في آية أُخرى وقال: (الّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِناءً) [3] فحلف سبحانه بالأرض وبما جعلها لنا فراشاً.

٦٣٤- والأرض كوكب من الكواكب التي تدور حول الشمس وتتبعها في سيرها أينما سارت، وهي الكوكب الخامس من حيث الحجم، والثالث من حيث القرب من بين الكواكب التسعة التي تتكون منها المجموعة الشمسية.

635-

٦٣٦- ١ـ النساء:٣.
٢ـ تفسير المراغي:٣٠|١٦٧.

٣- البقرة:٢٢.

637-

638- (169)

٦٣٩- والأرض تكاد تكون كرة، إلاّ أنّها منبعجة قليلاً عند خط الاستواء ومفلطحة عند القطبين. [١]

٦٤٠- ١٠، ١١. (وَنَفْسٍ وَما سَوّاها)، فالمراد من النفس هي الروح، قال سبحانه: (أَخْرِجُوا أَنفُسكُمْ) [٢] وقال: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ ما في أَنْفُسكُمْ فَاحْذَرُوهُ) [٣]

٦٤١- وقال: (تَعْلَمُ ما في نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ). [٤]

٦٤٢- فاذاً المراد من تسويتها إعطاوَها القوى الكثيرة الظاهرة والباطنة، فتسوية النفس هو تعديل قواها من الظاهرة والباطنة، ولو أُريد من النفس الروح والجسم فتسوية الجسم هو إيجادها بصورة متكاملة.

٦٤٣- وأمّا تنكير النفس، فلأنّه أراد كلّنفس من النفوس من دون أن يختص بنفس دون نفس، وربما يحتمل أن يكون التنكير إشارة إلى نفس خاصة، وهي نفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، والمعنى الأوّل هو الأوضح بقرينة انّه أخذ يحلف بالكائنات الحيّة وغير الحيّة.

٦٤٤- إلى هنا تمّ بيان الحلف بأحد عشر أمراً، وهذه الآيات تشتمل على أكثر الأقسام الواردة في القرآن الكريم.

٦٤٥- ثمّ إنّبعض من ينكمش من الحلف بغير اللّه سبحانه يرى نفسه أمام هذه الآيات، ويحس عجزاً في المنطق، ويقول: المراد هو ربّ الشمس والقمر وهكذا، ولكنّه غافل انّه لا يمكن تقديره في الآيتين الأخيرتين أي :(وَالسَّماء وَما بَناها *)

646-

٦٤٧- 1-اللّه والعلم الحديث:٢٥.
2-الأنعام:٩٣.
3-البقرة:٢٣٥.
4-المائدة:١١٦.

648-

649- (170)

٦٥٠- وَالأَرض وما طَحاها) إذ ينقلب معنى الآيتين أقسم بربّ السماء وربّ ما بناها أي ربّانيها، وهكذا الحلف بربّ الأرض وما طحاها، أي ربّ طاحيها.

٦٥١- إلى هنا تمّ الحلف بهذه الموجودات السماوية والأرضية والحية وغير الحية.

٦٥٢- أخبر سبحانه بأنّه بعد ما خلق النفس وسوّاها واكتملت خلقتها ظاهراً وباطناً، علّمها سبحانه التقوى والفجور، وفهم من صحيح الذات ما هو الحسن والقبيح، وقد تعلّم ذلك في منهج الفطرة، وقد استعمل كلمة «ألهم» لأنّه بمعنى إلقاء الشيء في روع الإنسان من دون

أن يعلم الملهم من أين أتى، والإنسان يعلم من صميم ذاته الحسن والسيّء من دون أن يتعلّم عند أحد.

٦٥٣- وقد أشار سبحانه إلى هذا النوع من الهداية الباطنية في آيات أُخرى، وقال: (وَهَدَيْناهُ النَّجْدَين). [1]

٦٥٤- ولما حلف بالموجودات السماوية والأرضية غير الحيّة والحيّة، وانّه قد ألهم النفس الإنسانية طرق الصلاح والفلاح، أو طرق الشر والضلال، أتى بجواب القسم، وهو قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها * وَقَدْخابَمَنْ دَسّاها) ، فجعل «زكاها» مقابل «دساها» فيعلم معنى الثاني من الأوّل، فقال: (وَقَدْخابَمَنْ دَسّاها).

٦٥٥- والتزكية هو التطهير من الآثام، مقابل التدسيس، وهي إخفاء الرذائل والذنوب.

٦٥٦- انّ قوله: (دسّاها) مشتق من التدسيس، وهو إخفاء الشيء من الشيء، والتدسيس مصدر دسّس، وهو من دسس يدسس تدسيساً، ومعنى الآية فالإنسان

657-

٦٥٨- 1-البلد: ١٠ .

659-

660- (171)

٦٦١- هو فاعل التزكية والتدسية ومتوليهما، والتزكية هي الإتمام والإعلاء بالتقوى، لأنّ لازم التطهير هو الإنماء كما أنّ التدسية النقص والإخفاء بالفجور.

٦٦٢- والمقسم عليه: هو قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها * وَقَدْخابَمَنْ دَسّاها)، وربّما يتصوّر أنّ جواب القسم محذوف.

٦٦٣- قال الزمخشري: إنّ جوابه محذوف تقديره ليدمدمنّ الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله كما دمدم على ثمود لأنّهم قد كذبوا صالحاً.

٦٦٤- وأمّا قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها) فكلام تابع لقوله: (فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها) على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء. [1]

٦٦٥- يلاحظ عليه: أنّه لو كان جواب القسم هو ما قدّره، يفقد الجواب الصلة اللازمة بينه و بين الأقسام الكثيرة الواردة في سورة الشمس، ولا مانع من أن يكون قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها) جواب القسم، بأن يكون تابعاً لقوله: (فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها).

٦٦٦- وعلى ما ذكرنا فالصلة بين الأمرين واضحة، وهي أنّه سبحانه يذكر نعمه الهائلة في هذه الآيات التي لو فقد البشر واحداً منها لتوقفت عجلة الحياة عن السير نحو الأمام، فمقتضى إفاضة هذه النعم وإنارة الروح بإلهام الفجور والتقوى هو المشي على درب الطاعة، وتزكية النفس دون الولوج في طريق الفجور وإخفاء الدسائس الشيطانية.

667-

٦٦٨- ١- الكشاف: ٣|٣٤٢.

669- (172)

٦٧٠- **الفصل السابع عشر**

٦٧١- **القسم في سورة الليل**

٦٧٢- حلف سبحانه في سورة الليل بأُمور ثلاثة: (اللَّيل إذا يَغْشى) ، (النَّهار إذا تَجَلّى) و(ما خلق الذكر والأُنثى) .

٦٧٣- وقال سبحانه: (وَاللَّيل إذا يَغْشى * وَالنَّهارِ إذا تَجَلّى * وَما خَلَقَ الذَّكَر وَالأُنثى * إنَّ سَعْيَكُمْ لَشتّى). [1]

٦٧٤- **تفسير الآيات**

٦٧٥- ١. (وَاللَّيل إذا يَغْشى) أقسم بالليل إذا يغشى النهار، أو يغشى الأرض، ويدل على الأوّل، قوله: (يُغشِي اللَّيلَ النَّهار)[2] بمعنى يأتي بأحدهما بعد الآخر ، فيجعل ظلمة الليل بمنزلة الغشاوة للنهار ويحتمل المعنى الثاني، كما في قوله في سورة الشمس:(وَاللَّيل إذا يَغْشاها) .

٦٧٦- ٢. (وَالنَّهار إذا تَجَلّى) عطف على الليل، والتجلّي ظهور الشيء بعد خفائه، وقد جاء الفعل في الآية الأُولى بصيغة المضارع وفي الآية الثانية بصورة الماضي وفقاً لسورة الشمس كما مرّ.

٦٧٧- ٣. (وَما خَلَقَ الذَّكَر وَالأُنثى) و«ما»موصولة كناية عن الخالق البارئ للذكر

678-

٦٧٩- 1-الليل: ١- ٤.
2-الأعراف: ٥٤.

680-

٦٨٢- والأُنثى، سواء أكان من جنس الإنسان أو من جنس الحيوان، وتطبيقه في بعض التفاسير على أبينا آدم وزوجه حوّاء من باب التمثيل لا التخصيص.

٦٨٣- وأمّا جواب القسم: هو قوله: (إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتّى)، وشتى جمع شتيت، كمرضى جمع مريض، و المراد تشتت السعي، فانّ سعي الإنسان لمختلف وليس منصبَّاً على اتجاه واحد، فمن ساع للدنيا ومن ساع للعقبى، ومن ساع للصلاح والفلاح، ومن ساع للهلاك والفساد.

٦٨٤- ثمّ إنّه سبحانه صنّف المساعي إلى قسمين،وقال في الآيات التالية بأنّ الناس على صنفين: فصنف يصبُّ سعيه في طريق العطاء والتقى والتصديق بالحسنى، فيُيسّر لليسري، وصنف آخر يصبُّ سعيه على ضدّما ذكر فيبخل ويستغني بما لديه، ويكذب بالحسنى، فيُيسر للعسرى.

٦٨٥- قال: (فَأَمّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى * وَصَدَّقَ بِالحُسْنى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسرى * وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى). [1]

٦٨٦- والصلة بين المقسم به والمقسم عليه: واضحة، وهي أنّه سبحانه أقسم بالمتفرقات خلقاً وأثراً على المساعي المتفرقة في أنفسها وآثارها، فأين التقوى والتصديق من البخل والتكذيب؟!

687-

٦٨٨- ١ ـ الليل: ٥ـ ١٠.

689-

690- (174)

٦٩١- **الفصل الثامن عشر**

٦٩٢- **القسم في سورة الضحى**

٦٩٣- حلف سبحانه في تلك السورة بأمرين، أحدهما الضحى، والآخر: (اللَّيل إذا سَجى) ، وقال: (وَالضُّحى * وَاللَّيلِ إذا سَجى * ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى * وللآخِرةُ خَيرٌ لَكَ مِنَ الأَُولى * وَلَسوفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فَتَرضى). [١]

٦٩٤- **تفسير الآيات**

٦٩٥- المراد من الضحى وقت الضحى، وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقي شعاعها، قال سبحانه: (وَأَنْ يُحْشَرَ النّاسُ ضُحى) . [٢]

٦٩٦- وقوله: (وَالليلِ إذا سَجى) أي والليل إذا سكن، يقال: سجى البحر سجواً، أي سكنت أمواجه، ومنه استعير تسجية الميت، أي تغطيته بالثوب، والمراد إذا غطى الليلُ وجه الأرض وعمّت ظلمتُه جميع أنحاء البسيطة.هذا هو المقسم به.

٦٩٧- وأمّا المقسم عليه: فهو ما جاء عقبه، أي ما تركك يا محمد ربّك وما أبغضك منذ اصطفاك.(وللآخِرةُ خَيرٌ لَكَ من الاَُولى) أي ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها خير لك من الدنيا الفانية.(ولَسَوفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فَتَرضى) أي سوف

698-

٦٩٩- 1ـ الضحى:١ـ ٥.
2ـ طه:٥٩.

700-

701- (175)

٧٠٢- يعطيك ربّك في الآخرة ما يرضيك من الشفاعة والحوض وسائر أنواع الكرامة.

٧٠٣- وروي أنّ محمد بن علي بن الحنفية، قال: يا أهل العراق، تزعمون أنّأرجى آية في كتاب اللّه عزّوجلّ هو قوله تعالى: (قُلْ يا عِبادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّه) [١] إنّا أهل البيت نقول: أرجى آية في كتاب اللّه، هو قوله:(وَلَسَوفَيُعطيكَ رَبُّكَ فَتَرضى) وهي واللّه الشفاعة، ليعطينّها في أهل لاإله إلاّاللّه حتى يقول: ربّي رضيت. [٢]

٧٠٤- وقد ذكر المفسرون في شأن نزول الآية: انّه احتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً، فقال المشركون: إنّمحمداً قد ودّعه ربّه وقلاه، ولو كان أمره من اللّه تعالى لتتابع عليه، فنزلت هذه السورة.

٧٠٥- هذا ما يذكره المفسرون، ولكن الحقّ انّه لم يكن هناك أيُّ احتباس وتأخير في نزول الوحي، وذلك لأنّه جرت سنّة اللّه تعالى على نزول الوحي تدريجاً لغايات معنوية واجتماعية، وقد أشار الذكر الحكيم إلى حكمة نزوله نجوماً في غير واحدة من الآيات، قال سبحانه:(وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُوَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً).[٣]

٧٠٦- فالآية تعكس فكرة المشركين حول نزول القرآن وكانوا يتصورون أنّ القرآن كالتوراة، يجب أن ينزل جملة واحدة لا نجوماً وعلى سبيل التدريج، فأجاب عنه الوحي، بأنّ في نزوله التدريجي تثبيتاً لفوَاد النبي «صلى الله عليه وآله

707-

٧٠٨- 1-الزمر:٥٣.
2-مجمع البيان:٥|٥٠٥.
3-الفرقان:٣٢.

709-

710- (176)

٧١١- وسلم» ، لتداوم الصلة بين الموحي والموحى إليه بين الحين والحين.

٧١٢- وهذا بخلاف ما لو نزل جملة واحدة وأوصد فيها باب الوحي، وانقطعت صلة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالسماء، ففي صورة استدامة الوحي والصلة بينه وبين اللّه سبحانه يعيش النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تحت ظل إمدادات غيبية تعقبه إزالة الصدأ العالق على قلبه من خلال مجابهة المشركين والكافرين، بخلاف الثاني، ففيه إيماء إلى انقطاع الصلة حينها يجد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه وحيداً دون من يعضده ويسلّيه ويذهب عنه همّ القلب.

٧١٣- ففي الحقيقة لم يكن هناك طارئة باسم احتباس الوحي أو تأخيره، وإن زعم المشركون نزول الوحي نجوماً احتباساً وتأخيراً له.

٧١٤- وأمّا الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فلا تخلو من وضوح:

٧١٥- ١. لأنّ نزول الوحي يناسب الضحى، كما أنّ انقطاعه يناسب الليل.

٧١٦- ٢. لأنّ عماد الحياة هو مجيئ الليل عقب النهار، لا استدامة النهار ولا استدامة الليل، فهكذا الحال في عماد الحياة النبوية الذي هو نزول الوحي نجوماً تثبيتاً لقلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

٧١٧- ٣. ولأنّ الضحى والليل نعمة من نعم اللّه سبحانه منّ بها على عباده لما لهما من تأثير مباشر في استقرار الحياة وهكذا الحال في نزول الوحي نجوماً.

٧٢٠- الفصل التاسع عشر

٧٢١- القسم في سورة التين

٧٢٢- حلف سبحانه في سورة التين، بأُمور أربعة: التين، الزيتون، طور سينين، البلد الأمين، قال سبحانه: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهذَا الْبَلَدِ الأَمِين * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ * إِلاّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) .[١]

٧٢٣- تفسير الآيات

٧٢٤- (التين والزَّيتُون) فاكهتان معروفتان، حلف بهما سبحانه لما فيهما من فوائد جمّة وخواص نافعة، فالتين فاكهة خالصة من شآئب التنغيص، وفيه أعظم عبرة لأنّه عزّ اسمه جعلها على مقدار اللقمة، وهيّأها على تلك الصورة إنعاماً على عِباده بها.

٧٢٥- وقد روى أبو ذر الغفاري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أنّه قال: «لو قلت انّ فاكهة نزلت من الجنة، لقلت: هذه هي، لأنّ فاكهة الجنة بلا عَجَمْ[٢] فانّها تقطع البواسير، وتنفع من النقرص». [٣]

٧٢٦- وأمّا الزيتون فانّه يعتصر منه الزيت الذي يدور في أكثر الأطعمة، وهو إدام، والتين فاكهة فيها منافع جمّة.

٧٢٨- ١ ـ التين: ١ ـ ٦.
٢ـ العجم: نوى التمر، أو كل ما كان في جوف مأكول كالزبيب.
٣ـ مجمع البيان: ٥|٥١٠.

٧٣١- ذكر علماء الأغذية أنّه يمكن الاستفادة من التين كسكر طبيعي للأطفال، ويمكن للرياضيين ولمن يعانون ضعف كبر السنّأن ينتفعوا منه للتغذية، حتى ذكروا أنّ الشخص إن أراد توفير الصحة والسلامة لنفسه فلابد له أن يتناول هذه الفاكهة، كما أنّ زيت الزيتون هو الآخر له تأثير بالغ في معالجة عوارض الكُلَى، حتي وصفها سبحانه بأنّه مأخوذ من شجرة مباركة، ولا نطيل الكلام في سرد فوائدهما. [١]

٧٣٢- هذا وربما يفسر التين بالجبل الذي عليه دمشق، والزيتون بالجبل الذي عليه بيت المقدس.

وهذا التفسير وإن كان بعيداً عن ظاهر الآيات، ولكن الذي يدعمه هو القسم الثالث والرابع- أعني: الحلف بـ (طور سينين * والبلد الأمين) ـ إذ على ذلك يكون بين الأُمور الأربعة

السالفة الذكر صلة واضحة، ولعل إطلاق اسم الفاكهتين على الجبلين لكونهما منبتيهما، والإقسام بهما، لأنّهما مبعثي جمّ غفير من الأنبياء.

٧٣٣- ثمّ إنّ المراد من طور سينين، هو الجبل الذي كلّم الله فيه موسى (عليه السلام)، وقال: (إِنِّي أَنَا رَبّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالوادِ المُقدَّسِ طُوى) [٢] وقال: (إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ المُقَدَّسِ طُوى) [٣] وقال سبحانه مخاطباً موسى (عليه السلام): (وَلكِنِ انْظُر إِلى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَ مَكانَهُ فَسَوفَ تَراني فَلَمّا تَجلّى رَبّه لِلجَبَلِ جَعَلهُ دَكّاً وخَرّ مُوسى صَعِقاً) . [٤]

734-

٧٣٥- 1-فمن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب علماء الأغذية وما أُلّف في هذا المضمار.
2-طه:١٢.
3-النازعات:١٦.
4-الأعراف:١٤٣.

736-

737- (179)

٧٣٨- البلد الأمين

٧٣٩- وقد ذكر لفظ البلد في دعاء إبراهيم، حيث قال: (وَإِذْقالَإِبْراهيم رَبِّ اجْعَل هذا بَلَداً آمِناً وَارزُق أَهْلهُ مِنَ الثَّمراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَاليَومِ الآخر) [١] وقال أيضاً: (رَبِّ اجْعَل هذا البلد آمناً وَاجْنُبْني وَبَنَيّ أن نَعْبُد الأَصْنام) . [٢]

٧٤٠- وقد أمر سبحانه نبيّه الخاتم، أن يقول: (إِنَّما أُمرت أن أَعبُدَ ربَّ هذه البَلْدة الّذي حرّمها ولَهُ كُلّ شيء وَأُمرت أن أكون من المُسلمين) . [٣]

٧٤١- وقد جاء ذكر البلد في بعض الآيات كناية، قال سبحانه: (انَّ الّذي فَرَضَعَلَيْكَ القُرآن لَرادّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبّي أَعْلَم مَنْ جاءَبِالهُدى وَمَنْهُوَفي ضَلالٍ مُبين) . [٤]

٧٤٢- والمراد من قوله (إلى معاد) هو موطنه الذي نشأ فيه.

٧٤٣- وقد روى المفسرون في تفسير الآية انّه لما نزل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بالجحفة في مسيره إلى المدينة لما هاجر إليها اشتاق إلى مكة فأتاه جبرئيل (عليه السلام)، فقال: أتشتاق إلى بلدك ومولدك، فقال: نعم. قال جبرئيل: فإنّ الله، يقول:(إِنَّ الّذي فَرَضَعَلَيْكَ القُرآن لَرادّكَ إِلى مَعاد) يعني مكة ظاهراً عليها، فنزلت الآية بالجحفة، وليست بمكية ولا مدنية، وسمّيت مكة معاداً لعوده إليها. عن ابن عباس. [٥]

٧٤٤- كما ذكر أيضاً في آية أُخرى بوصفه وقال: (أَوَ لَمْ يَرَوا انّا جَعَلْنا حَرماً آمِناً)

745-

٧٤٦- 1-البقرة:١٢٦.
2-إبراهيم:٣٥.
3-النمل:٩١.
4-القصص:٨٥.
5-مجمع البيان:٧/٢٦٨.

747-

748- (180)

٧٤٩- وَيُتَخَطَّف النّاسُ منْ حَولهِم أَفَبالباطِل يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللّه يكْفُرون) . [١]

٧٥٠- وقد وصف سبحانه البلد بالأمن وأصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف، وقد جعله وصفاً في بعض الآيات للحرم، قال سبحانه: (أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرماً آمناً يجبى إليهِ ثَمرات كلّ شَيْءٍ رِزْقاً من لَدُنّا وَلكِنّ أَكثَرهم لا يَعْلَمُون) [٢]

٧٥١- وفي آية أُخرى يقول:(أَوَ لَمْ يَرَوا أَنّا جَعَلْنا حَرَماً آمناً وَيُتَخَطَّف النّاسُ من حَولهِمْ أَفَبالباطل يؤمنون وبنعمة اللّه يكفرون). [٣]

٧٥٢- والمراد من هذا الأمن هو الأمن التشريعي، بمعنى أنّه سبحانه حرم فيه القتل والحرب حتى قطع الأشجار والنباتات إلاّ بعض الأنواع مما تحتاج إليه الناس، والذي يوضح أنّ المراد من الأمن هو الأمن التشريعي لا التكويني قوله سبحانه: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِلَلَّذي بِبَكّة مُباركاً وَهُدىً لِلْعالَمين * فِيه آياتٌ بَيِّنات مَقامُ إبراهيم وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَلِلّه عَلى النّاسِحِجُّ الْبَيْت مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبيلاً وَمَنْ كَفَرَ فإِنَّ اللّه غَنِيٌّ عَن الْعالَمين) . [٤]

٧٥٣- فالآية الأُولى تحكي عن تشريع خاص، وهو أنّ الكعبة أوّل بيت وضعت لعبادة الناس، ويدل على ذلك أنّ فيه مقام إبراهيم، كما أنّ الآية الثانية تبيّن تشريعاً آخر، وهو وجوب حجّ البيت لمن استطاع إليه، وبين هذين التشريعين جاء قوله:(وَمَنْ دَخَلَهُ كانَآمِناً)وهذا دليل على أنّ المراد من الأمن هو الأمن التشريعي لا التكويني، ولذلك كان الطغاة يسلبون الأمن عن هذا البلد بين آونة وأُخرى.

754-

٧٥٥- ١ـ العنكبوت:٦٧.
٢ـ القصص:٥٧.
٣ـ العنكبوت:٦٧.
٤ـ آل عمران:٩٦ـ ٩٧.

756-

757- (181)

٧٥٨- ويشير إلى الأمن بقوله سبحانه: (جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الحَرام قِياماً لِلنّاسِوَالشَّهْرَ الحَرامَ) [١] وصف البيت بالحرام، حيث حرّم في مكانه القتال، وجعل الناس فيه في أمن من حيث دمائهم وأعراضهم وأموالهم.

٧٥٩- فهذه الآيات تشير إلى مكانة البلد الذي احتضن البيت الحرام، ذلك المكان المقدس الذي حاز على أهمية بالغة عند المسلمين على اختلاف نحلهم، فإليه يوجِّه الناس وجوههم في صلواتهم وفي ذبائحهم وعند احتضار أمواتهم.

٧٦٠- وفضلاً عن ذلك فانّه يعد ملتقىً عبادياً وسياسياً لحشود كبيرة من المسلمين، وما يترتب عليه من نتائج بناءة على صعيد مدِّ جسور الثقة بين كافة النحل الإسلامية. وبتبعه حاز البلد على مكانة مقدسة جعلته صالحاً للقسم به.

٧٦١- المقسم عليه

762- المقسم عليه للأقسام الأربعة ـ أعني: التين، الزيتون، طور سينين، البلد الأمين- هو فيقع الكلام في (لَقَدْخَلَقْنَا الإِنْسانَ في أَحْسَنِ تَقْويم * ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلين) :قوله سبحانه أمرين:

٧٦٣- أ: ما هو المراد من خلق الإنسان في أحسن تقويم ثمّ ردّه إلى أسفل سافلين؟

٧٦٤- ب: ما هي الصلة بين الأقسام الأربعة وهاتين الآيتين اللتين هما المقسم عليه للأقسام الأربعة.

٧٦٥- أمّا الأوّل فربّما يقال: انّ المراد من خلق الإنسان في أحسن تقويم هو جودة

766-

٧٦٧- 1- المائدة:٩٧.

768-

769- (182)

٧٧٠- خلقه واستقامة وجوده من صباه إلى شبابه إلى كماله فيتمتع بكمال الصورة وجمال الهيئة وشدة القوة، فلم يزل على تلك الحال حتى يواجه بالنزول أي رده إلى الهرم والشيخوخة والكهولة فتأخذ قواه الظاهرة والباطنة بالضعف، وتنكس خلقته، قال سبحانه: (وَمَنْنُعَمِّرهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ)[١] لكن هذا التفسير لا يناسبه الاستثناء الوارد بعده قال سبحانه:(إِلاّالّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون) أي غير مقطوع.

٧٧١- فلو كان المراد من الآية ما جرت عليه سنّة اللّه تعالى في خلق الإنسان فهي سنّة عامة تعم المؤمن والكافر والصالح والطالح، مع أنّه يستثني المؤمن الصالح من تلك الضابطة.

٧٧٢- فالأولى تفسير الآيتين بالتقويم المعنوي، وردّه إلى أسفل سافلين هو انحطاطه إلى الشقاء والخسران بأن يقال: انّ التقويم جعل الشيء ذا قوام، وقوام الشيء ما يقوم به ويثبت، فالإنسان بما هو إنسان صالح حسب الخلقة للعروج إلى الرفيق الأعلى، والفوز بحياة خالدة عند ربه سعيدة لا شقوة فيها، قال سبحانه: (وَنَفْسٍ وَما سَوّاها * فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها)[٢] فإذا آمن بما علم ومارس صالح الأعمال رفعه اللّه إليه، كما قال: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ)[٣]يس، وقال عزّاسمه: (يَرفَعِ اللّهُ الّذينَآمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجات)[٤] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ارتفاع مقام الإنسان وارتقائه بالإيمان والعمل الصالح مقاماً عالياً ذا عطاء من اللّه غير مجذوذ، وقد أشار في آخر

773-

٧٧٤- -1يس:٦٨.
-2الشمس:٧- ٨.
-3فاطر:١٠.
-4المجادلة:١١.

775-

776- (183)

٧٧٧- هذه السورة إلى العطاء الدائم، بقوله: (فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيرُ مَمْنُون) .

٧٧٨- وعلى ذلك يكون المراد من أسفل سافلين هو تردّي الإِنسان إلى الشقوة والخسران. (١)

٧٧٩- وأمّا وجه الصلة فلو قلنا بأنّ المراد من التين الجبل الذي عليه دمشق، وبالزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس وهما مبعثا جمّ غفير من الأنبياء، فالصلة واضحة، لأنّهذه الأراضي أراضي الوحي والنبوة فقد أوحى اللّه سبحانه إلى أنبيائه في هذه الأمكنة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى أحسن تقويم، ويصدهم عن التردي إلى أسفل سافلين.

٧٨٠- وبعبارة أُخرى: إنّ هذه الأماكن مبعث الأنبياء ومهبط الوحي، فهوَلاء بفضل الوحي يهدون المجتمع الإِنساني إلى الرقي والسعادة التي يعبر عنها القرآن بأحسن تقويم،ويحذرونه من الانحطاط والسقوط في الهاوية التي يعبر عنها سبحانه بـ(أَسْفَلَ سافِلِين) .

٧٨١- إنّما الكلام فيما إذا كان المراد من التين والزيتون، الفاكهتان المعروفتان اللتين أقسم اللّه بهما لما فيهما من الفوائد الجمّة والخواص النافعة، فعندئذٍلاتخلو الصلة من غموض، فليتدبر.

٧٨٢- ولا يخفى انّ كلّالمخلوقات، من حيوان ونبات توحي بالجلال و الاحترام لها وبالجمال وكمال الخلق، وهي تبدو مبرمجة أو مخلوقة هكذا لا تحيد عن ذلك، فهل رأيت طيراً لا يبني عشه أو لا يُطعمُ فراخه؟ أم رأيت حيواناً لم يهبه اللّه الذكاء والمقدرة على تحصيل رزقه، أو الدفاع عن نفسه؟ حقاً انّهذه المخلوقات لا تعرف الهزل، فهي جدّيّة ولكن في وداعة، غريبة ولكن في جمال، وبسيطة

783-
784- 1- الميزان:٢٠|٣١٩- ٣٢٠.
785-

786- (184)

٧٨٧- ولكن في جلال آسر. إن كلاً منها تسير على الطريق التي اختطها الخالق لها طائعة ملبّية، وهي تسبّح بحمد ربّـها كلّها. إنّها لا تعرف الكذب أو المصانعة، بل هي متّسقة مع نفسها ومع ما حولها، بل و مع الكون جميعاً. في تناغم عجيب وجمال بديع. فتعالى اللّه الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين والباطن بجلال عزّته عن فكرة المتوهمين. (١)

٧٨٨-

789-

٧٩٠- 1-أسرار الكون في القرآن:٢٨٣.

791- (185)

٧٩٢- الفصل العشرون

٧٩٣- القسم في سورة العاديات

٧٩٤- حلف سبحانه في هذه السورة بأُمور ثلاثة: العاديات، الموريات، المغيرات. قال سبحانه: (وَالعادِيات ضَبحاً * فَالمُوريات قَدحاً * فَالمُغيراتِ صُبحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً * إِنَّ الإِنْسانَلِرَبِّهِلَكَنُود * وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهيد * وَانّهُ لحبّ الخَيْر لَشديد) .[1]

٧٩٥- تفسير الآيات

٧٩٦- (العاديات) من العدو وهو الجري بسرعة.«الضبح» صوت أنفاس الخيل عند عدوها، وهو المعهود المعروف من الخيل، ومعنى الآية أُقسم بالخيل التي تعدو وتضبح ضبحاً.

٧٩٧- (فَالمُوريات قدحاً) فالموريات من الايراء وهو إخراج النار، و«القدح» الضرب، يقال: قدح فأورى: إذا أخرج النار بالقدح،والمراد بها الخيل التي تخرج النار بحوافرها حين ضربها الأحجار

٧٩٨- (فالمغيرات صبحاً) الإغارة: الهجوم على العدو بغتة بالخيل،وهي صفة أصحاب الخيل ونسبتها إلى الخيل بالمجاز والمناسبة،والمعنى: أُقسم بالخيل المغيرة على العدو بغتة في وقت الصبح.

٧٩٩- (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً) والنقع: الغبار، والمراد إثارة الغبار حين العدو، لما في

800-

801- 1- العاديات:١- ٨.

802-

803- (186)

٨٠٤- الإغارة على العدو بالخيل من إثارة الغبار. والضمير في «به» يرجع إلى العدو المستفاد من قوله: والعاديات، والباء للسببية.

٨٠٥- (فوسطن به جمعاً) فلو قلنا بتشديد السين يكون المعنى حاصروا الأعداء، ولكن القراءة المعروفة هي بلا تشديد الفعل فيكون معناه أي صاروا في وسط الأعداء بما انّ هجومها كان مباغتاً خاطفاً استطاعت في بضع من اللحظات أن تشق صفوف العدو وتشن حملتها في قلبه وتشتت جمعه.

٨٠٦- ثمّ الضمير إمّا يرجع إلى العدو المستفاد من قوله: (والعاديات) أو إلى النقع فيكون المعنى فوسطن صباحاً أو في خضمِّ النقع صفوف الأعداء.

٨٠٧- ويحتمل أن يرجع الضمير إلى الصبح، ويكون الباء بمعنى «في» أي وسطن في الصبح جمعاً.

٨٠٨- وعلى كلّ حال فالآيات تحلف بالخيول التي تسرع إلى ميدان الجهاد بسرعة حتى تضبح ويتطاير الشررَ من تحت حوافرها باستدامة ضرب الحافر للأحجار، وعند انجلاء الصبح تشنّ هجوماً شديداً يثير الغبار في كلّ جانب ثمّ تتوغل إلى قلب العدو وتشتت صفوفه. وهذا يعرب انّ الجهاد له منزلة عظيمة إلى حد استحق أن يقسم بخيوله والشرر التي تتطاير من حوافرها والغبار الذي تثيره في الهواء.

٨٠٩- هذا كلّه حول الأقسام، وأمّا جواب القسم، فهو قوله:(إِنَّ الإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود) والكنود، اسم للأرض التي لا تنبت ويطلق على الإنسان الكافر والبخيل، فكأنّه جُبِّل على نكران الحق وجحوده وعدم الإقرار بما لزمه من شكر خالقه والخضوع له. يقول سبحانه: (إِنَّ الإِنْسانَلَكَفُور) [1] وهو اخبار عمّا في طبع

810-
811- 1- الحج:٦٦.
812-

813- (187)

٨١٤- الإنسان من اتّباع الهوى والانكباب على الدنيا والانقطاع بها عن شكر ربّه، وفيه تعريض للقوم المغار عليهم، بأنّهم كانوا كافرين بنعمة الإسلام، وهذا على وجه يشهد الإنسان على كفران نفسه، كما يقول: (وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهيد) .

٨١٥- ثمّ إنّه يدلّل شهادته على ذلك بقوله: (وَإِنَّهُ لحُبّ الخَير لَشَديد) والمراد من الخير المال.

٨١٦- ثمّإنّ هذه الآيات لا تنافي ما دلت عليه آية الفطرة، قال سبحانه:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينَ حَنيفاً فِطْرَةَ اللّهِالّتي فَطَرَالنّاسَ عَلَيها لا تَبديلَ لِخَلْقِاللهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّم وَلكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُون) . [1]

٨١٧- وجه عدم التنافي انّ الإنسان كما جبل على الخير جبل على الشر أيضاً، فكما ألهمها تقواها ألهمها فجورها، وكما أنّه هداه إلى النجدين، ولكن السعادة هو من يستخدم قوى الخير ويتجنب قوى الشر.

٨١٨- والحاصل انّ الآيات القرآنية على صنفين: فصنف يصف الإنسان بصفات سلبية مثل قوله: (يوَس) [2] (ظلوم كفّار)[3]

٨١٩- (عَجُولاً) [4] (كَفُوراً) [5] (أكثر شيء جَدلاً) [6]، (ظَلُوماًجَهُولاً) [7](كَفور مُبين) [8] (هَلُوعاً) [9] إلى غيرذلك

820-

٨٢١- 1-الروم:٣٠.
2-هود:٩.

-3إبراهيم:٣٤.
-4الإسراء:١١.
-5الاسراء:٦٧
-6الكهف:٥٤.
-7الأحزاب:٧٢.
-8الزخرف: ١٥.
-9المعارج: ١٩.

822-

823- (188)

٨٢٤- من الصفات السلبية الواردة في القرآن الكريم.

٨٢٥- وصنف آخر يصفه بصفات إيجابية تجعله في قمة الكرامة والعظمة.

٨٢٦- فقد بلغت به الكرامة انّه صار «مسجوداً للملائكة» [١] مخلوقاً بفطرة اللّه [٢]

٨٢٧- منشأ بأحسن تقويم [٣] مفضلاً على كثير من المخلوقات [٤] حاملاً لأمانة اللّه [٥]

٨٢٨- سائراً في البر والبحر ومرزوقاً من الطيبات ومكرماً عند اللّه [٦] إلى غير ذلك من الآيات التي تصف الإنسان بصفات إيجابية.

٨٢٩- ولا منافاة بين الصنفين من الآيات، وذلك لأنّ تلك الكرامة إنّما هي للإنسان الذي تمتع بكلا الوصفين، فهو عندما يلبّي نداء العقل والشرع ينل كرامته العليا، ويكون مظهراً لقوله:(وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفضيلاً) [٧] ولو خضع لدعوة النفس والهوى، يكون مظهراً للصفات السلبية، كفوراً يوَساً هلوعاً كنوداً إلى غير ذلك من الصفات الذميمة. فالكمال كلّالكمال لإنسان تكمن فيه قوى الخير والشر فيقوي إحداهما على الأُخرى بإرادة واختيار دون أي وازع، فلو جبل على إحدى القوتين دون الأُخرى لما استحق المدح ولا اللوم دون ما إذا كان فيه أرضية الخير والشر فيعالج أرضية الشر بتوجيهها نحو الخير والكمال، ولذلك نرى انّه سبحانه يستثني بعد الحكم على الإنسان بقوله: (ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ

830-
831- 1- الأعراف:١١.
2- الروم:٣٠.
3- التين:٤.
4- الإسراء:٧٠.
5- الأحزاب:٧٢.
6- الإسراء: ٧٠.
7- الإسراء:٧٠.

832-

833- (189)

٨٣٤- سافِلين) الفئة المؤمنة العاملة بالصالحات ويقول:(إِلاّ الّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون)[١] .

٨٣٥- إلى هنا تبين المقسم به والمقسم عليه.

٨٣٦- بقي الكلام في الصلة بين المقسم به والمقسم عليه، فنقول:

٨٣٧- إنّه سبحانه بعث الأنبياء لهداية الناس، فمنهم من يهتدي بكتابه وسنّته، فهذه الطائفة تكفيها قوة المنطق؛ وثمة طائفة أُخرى لا تهتدي، بل تثير العراقيل في سبيل دعوة الأنبياء، فهداية هذه الطائفة رهن منطق القوة، ولذلك يقول سبحانه:(لَقَدْأَرْسَلْنا رُسُلنا بِالبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتاب وَالمِيزان لِيَقُوم النّاس بالقِسْط وَأَنْزَلْنا الحَديد فيهِ بَأْسٌ شَديدٌ وَمَنافِعُ لِلنّاس) .[٢]

٨٣٨- فهذه الآية موَلفة من فقرتين:

٨٣٩- الفقرة الاَُولى التي تتضمن البحث عن إرسال الرسل بالبيّنات وإنزال الكتب والميزان راجعة إلى من له أهلية للهداية فيكفيه قوة المنطق

٨٤٠- والفقرة الثانية، أعني:(وَأَنْزَلْنَا الحَديد)فهي راجعة إلى من لا يستلهم من نداء العقل والفطرة ولا يهتدي بل يثير الموانع فلا يجدي معهم سوى الحديد الذي هو رمز منطق القوة.

٨٤١- وبذلك يعلم وجه الصلة بين إنزال الحديد وإرسال الكتب، وبهذا تبين أيضاً وجه الصلة بين الأقسام والمقسم عليه، ففي الوقت الذي كان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يعظ ويبعث رجال الدعوة لإرشاد الناس، اجتمعت طائفة

842-
843- 1- التين:٥- ٦.
2- الحديد:٢٥.
844-

٨٤٦- لمباغتة المسلمين والهجوم على المدينة والإطاحة بالدولة الإسلامية الفتية، فبعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً مع سريّة، فأمر أن تسرج الخيل في ظلام الليل وتعدّإعداداً كاملاً، وحينما انفلق الفجر صلّى بالناس الصبح وشنَّ هجومه وباشر و ما انتبه العدو حتى وجد نفسه تحت وطأة خيل جيش الإسلام ، فهذه الطائفة لا يصلحهم إلا العاديات والموريات والمغيرات التي تهاجمهم كالصاعقة.

٨٤٧- نقل الفيض الكاشاني في تفسيره عن تفسير القمي عن الصادق (عليه السلام) : «إنّها [سورة العادياتج نزلت في أهل وادي اليابس، اجتمعوا اثني عشر ألف فارس وتعاقدوا وتعاهدوا وتواثقوا أن لا يتخلّف رجل عن رجل ولا يخذل أحد أحداً، ولا يفر رجل عن صاحبه حتى يموتوا كلّهم على حلف واحدويقتلوا محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي بن أبي طالب (عليه السلام) ».

٨٤٨- إلى أن قال:

٨٤٩- «خرج علي (عليه السلام) ومعه المهاجرون والأنصار وسار بهم غير سير أبي بكر، وذلك انّه أعنف بهم في السير حتى خافوا أن ينقطعوا من التعب وتحفى دوابهم، فقال لهم: لا تخافوا فانّ رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أمرني بأمر وأخبرني انّ اللّه سيفتح عليّ وعليكم، فأبشروا فانّكم على خير وإلى خير، فطابت نفوسهم وقلوبهم، وساروا

على ذلك السير التعب حتى إذا كانوا قريباً منهم حيث يرونه ويريهم، أمر أصحابه أن ينزلوا، وسمع أهل وادي اليابس بمقدم علي بن أبي طالب (عليه السلام) وأصحابه، فأخرجوا إليهم منهم مائتا رجل شاكين بالسلاح، فلمّا رآهم علي (عليه السلام) خرج إليهم في نفر من أصحابه.

٨٥٠- فقالوا لهم: من أنتم، ومن أين أنتم، ومن أين أقبلتم، وأين تريدون؟ قال: أنا علي بن أبي طالب (عليه السلام) ابن عمّرسول اللّهوأخوه ورسوله إليكم ادعوكم

851-

852- (191)

٨٥٣- إلى شهادة أن لا إله إلاّالله وانّ محمّداً عبده ورسوله، ولكم ان آمنتم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين من خير وشر، فقالوا له: إياك أردنا، وأنت طلبتنا، قد سمعنا مقالتك، فخذ حذرك واستعد للحرب العوان، واعلم انّا قاتلوك وقاتلوا أصحابك والموعود فيما بيننا وبينك غداً ضحوة، وقد اعذرنا فيما بيننا وبينك.

٨٥٤- فقال لهم علي (عليه السلام) : ويلكم تهدّدوني بكثرتكم وجمعكم، فأنا أستعين باللّه وملائكته والمسلمين عليكم ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم.

٨٥٥- فانصرفوا إلى مراكزهم وانصرف علي إلى مركزه، فلمّا جنّه الليل أمر أصحابه أن يحسنوا إلى دوّابهم ويقضموا ويسرجوا، فلمّا انشق عمود الصبح صلى بالناس بغلس، ثمّ غار عليهم بأصحابه فلم يعلموا حتى وطأهم الخيل، فما أدرك آخر أصحابه حتى قتل مقاتليهم وسبى ذراريهم واستباح أموالهم وخرب ديارهم وأقبل بالأُسارى والأموال معه.

٨٥٦- فنزل جبرئيل وأخبر رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) بما فتح اللّه على عليّ (عليه السلام) وجماعة المسلمين.

٨٥٧- فصعد رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه وأخبر الناس بما فتح اللّه على المسلمين، وأعلمهم انّه لم يصب منهم إلاّ رجلين، ونزل فخرج يستقبل عليّاً (عليه السلام) في جميع أهل المدينة من المسلمين حتى لقيه على ثلاثة أميال من المدينة، فلمّا رآه علي (عليه السلام) مقبلاً نزل عن دابته، ونزل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى التزمه وقبّل ما بين عينيه، فنزل جماعة المسلمين إلى علي (عليه السلام) حيث نزل رسول اللّه «صلى الله عليه وآله وسلم» وأقبل بالغنيمة والأُسارى و ما رزقهم اللّه من أهل وادي اليابس».

٨٥٨- ثمّ قال جعفر بن محمد (عليهما السلام) : «ما غنم المسلمون مثلها قط إلاّ أن يكون من خيبر، فانّها مثل خيبر وأنزل اللّه تعالى في ذلك اليوم هذه السورة:

859-

860- (192)

٨٦١- (وَالعاديات ضبحاً) يعني بالعاديات: الخيل تعدو بالرجال،والضبح ضبحها في أعنّتها ولجمها.

٨٦٢- (فالموريات قدحاً * فالمغيرات صبحاً) فقد أخبرك انّها غارت عليهم صبحاً.

٨٦٣- (فأثرن به نقعاً) قال: يعني الخيل يأثرن بالوادي نقعاً.

٨٦٤- (فوسطن به جمعاً * إنَّ الإِنسان لربّه لكنود * وانّه على ذلك لشهيد * وَانَّهُ لحبّ الخَيرِ لَشديد) قال: يعنيهما قد شهدا جميعاً وادي اليابس وكانا لحب الحياة حريصين». [1]

٨٦٥- بلغ الكلام إلى هنا في شهر جمادي الأُولى

٨٦٦- من شهور عام ١٤٢٠ هـ من الهجرة النبوية

٨٦٧- في قم المحميّة وحوزتها المصونة

٨٦٨- وتم بيد موَلّفه الآثم المحتاج إلى ربّه العاصم جعفر السبحاني

ابن الفقيه الشيخ محمد حسين الخياباني التبريزي تغمده اللّه برحمته الواسعة

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين